

روايات مصرية للجيب
زهور
82
زهرة برية
الجزء الأول
Looloo
www.dvd4arab.com
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

هذه السلسلة ..

عندما تتحوَّل حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..
وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..
يتوق قلب كل منا إلى الحبّ .. الحبّ الذى يروى هذه المشاعر .
فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأبْ .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب .. وفى لحظات الكراهية .. وفى لحظات الجفاف .. فتشيع عبيرها الفوّاح في ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرّك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ـ فتاة من العريش ..

ـ (ليلى) .. أين أنت يا (ليلى) ؟

تردد صوته فى أرجاء الدار الكبيرة دون أن يجد إجابة على ندائه ، فرفع الشيخ (همام) صوته بالنداء مرة أخرى وهو يفتح باب الدار مناديًا الفتاة .

وكان صوته ينطوى دائمًا ـ كلما ناداها ـ على شىء من الخشونة والوعيد .

على أنه فى هذه المرة لم يكن آمرًا ولا متوعدًا وإنما كان يناديها نداء فيه تملق ونفاق .. وقد عاد ليصيح :

ـ أين أنت يا بنيتى ؟ لماذا لا تجيبين نداء عمك ؟

مزق صوته الأجش العالى النبرات سكون المكان .. فتنبهت (ليلى) من رقدتها فوق القش داخل حظيرة المواشى .

وكانت ترقب عصفورًا صغيرًا يلتقط بعض حبات القمح من الأرض المجاورة لها فى طمأنينة وسلام ، وقد علت الابتسامة وجهها .. كأن كلاً منهما يشعر بالألفة تجاه الآخر .

وما لبثت أن هبت واقفة على إثر سماعها لصوته ، وقد أخذت تنفض عن ثوبها آثار القش الذى علق به .

وكذلك فعل كلبها (عنتر) الذى أخذ يهز ذيله وقد بدا عليه الاضطراب بدوره لدى سماعه لهذا الصوت .. فأخذ ينبح بشدة .

لكن (ليلى) أشارت له بيدها لكى يتوقف عن النباح .. فامتثل لإشارتها على الفور .

ثم أرهفت السمع لذلك النداء المتكرر من عمها .. فأطلقت زفرة قصيرة تعبر بها عن ضيقها وهى تشير لكلبها مرة أخرى قائلة :

- هيا بنا يا (عنتر) .. إن عمى ينادينى مرة أخرى .. ويبدو أن الراحة محرمة علينا فى هذا المنزل .

كان عمها واقفًا بالباب يكاد يحجبه بجسمه الضخم، وقد ارتدى عباءته الصوفية فوق بذلته الجديدة .

وكانت (ليلى) قد اعتادت قسوته وغلظة طبعه ، ومزاجه العصبى وتعايشت مع هذه القسوة والفظاظة برغمها ..

كان الضرب وتكسير الأوانى أول ما تنطلق به يده عندما يثور ويغضب ، وذلك فى العهد الذى كانت فيه (ليلى) صغيرة لا تستطيع الدفاع عن أمها المسكينة التى كانت تحب ذلك الوحش ، وتخلص له ، وبرغم ما كان يملأ به حياتها من شقاء وآلام ظلت تحتملها وتقاسيها حتى أنقذها الموت منه .

وعندما كبرت (ليلى) احتملت هذه الفظاظة من جانبه ، وتدربت على تجنب قسوته معها ، والتصدى لضربه لها أحيانًا .. كما أنها أصبحت أكثر حرصًا على منعه من تكسير الأوانى التى لم يكن يعوضها عن كسرها .

فهذا الرجل هو عمها وزوج أمها فى ذات الوقت .

فقد تزوج أمها بعد وفاة والدها وهى فى الثانية عشرة من عمرها ، وأنجب من أمها طفلة صغيرة سمتها أمها (زاهية) .. فأصبحت أختها وابنة عمها فى ذات الوقت ..

وتوفيت أمها والطفلة لا يتجاوز عمرها الثمانية أشهر .. فاحتضنتها أختها التى صارت شابة جميلة بعد وفاة الأم .

كان قد هذب لحيته ، واعتنى بمظهره وهيئته هذا اليوم على غير العادة ، وكانت (ليلى) تعرف السر وراء ذلك .. فهو ينوى السفر بعد قليل ذاهبا إلى القاهرة لإحضار زوجته الجديدة .. فقد أخبرها بذلك منذ يومين .

ولم يكن يعنيها من أمر زواجه شىء إلا أنها كانت تشفق على تلك التى وقع عليها اختياره .

أما هى فلم يكن يضطرها إلى البقاء معه إلا حبها لأختها الصغيرة ، التى تركتها أمها قبل أن تتم الرضاعة .. وحرصها الشديد على رعايتها والقيام بخدمتها .

فالطفلة أصبحت الآن فى عامها الثانى ، وهى فضلاً عن يتمها وصغر سنها ضعيفة ونحيفة .

والرجل كأن قلبه قد قد من حجر .. فهو لا يعرف الشفقة حتى تجاه هذه الطفلة المسكينة التى هى ابنته .

ومن أجل هذه الطفلة المسكينة تحملت متاعب الحياة معه ، والقيام بما يرهقها من عمل شاق فى هذه الدار وما حولها ، دون أن يؤدى لها حقا

أو يشملها برعاية حقيقية برغم كونه عمها .. فهو لا يقوم بهذه الرعاية المستحقة حتى تجاه ابنته نفسها.

وكانت (ليلى) فى العشرين من عمرها .. لكن هذه الحياة المضنية الشاقة تركت آثارها فى جسدها فجعلتها نحيفة .. شاحبة الوجه .. لكنها لم تستطع أن تنال من جمالها الملائكى ، الذى ينطوى على إشراقة يتوارى بجوارها شحوب وجهها .

كما أن تلك الحياة الشاقة قد أكسبتها من ناحية أخرى شدة وصلابة ، وبرغم نحافتها إلا أنها كانت نشيطة الحركة .. يمكنها أن تقوم بأعمال كثيرة ومتعددة دون تعب أو عناء .. فضلا عن تميزها بالذكاء .. الذى كان يجعلها سريعة التعلم لأى شىء من الممكن أن يثير فضولها واهتمامها مهما كانت صعوبته وتعقيده .

انتظر عمها وهو يكظم غضبه من مشيتها الوئيدة ، حتى اقتربت منه ليسألها قائلاً :

ـ أين كنت ؟

أجابته قائلة فى هدوء :

ـ كنت أطعم الأغنام والدجاج وأنظف الحظيرة ..

أشعل لفافة تبغ قائلاً :

- دعك من كل هذا الآن .. واستعدى لتوصيلى إلى موقف السيارات . سألته قائلة :

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- ألم أخبرك من قبل ؟ إننى سأذهب لإحضار زوجتى الجديدة وابنتها ليعيشا معنا هنا .

نظرت إليه ساهمة .. فقال لها بخبث .

- هل أنت مستاءة لذلك ؟ أعرف بالطبع أن هذا الأمر قد يضايقك ، لكن يجب أن تعرفى أن أى امرأة لن تعوضنى عن المرحومة والدتك .

وأن هذه السيدة ..

قاطعته الفتاة بحدة قائلة :

- أعرف أنه لا توجد امرأة يمكن أن تتساوى مع أمى فى شىء ، فلست بحاجة لأن تسمعنى ذلك .

كما أننى لا أهتم بتلك السيدة التى تنوى الزواج منها ولا بابنتها .

كل ما يعنينى هو ألا يؤثر ذلك بأى حال من الأحوال على الرعاية الواجبة التى أقوم بها تجاه أختى :

ابتسم قائلاً وهو يضع يده على كتفها محاولاً التودد إليها :

- لن يؤثر زواجى بالطبع على رعايتك لابنتى .. وما كنت لأسمح بذلك .

لكنها أبعدت كتفها عن يده قائلة :

- ومتى تنوى إحضار تلك الزوجة إلى هنا ؟

أجابها قائلاً :

- ريثما أنتهى من الإجراءات المطلوبة .. إنها ليست غريبة عن هنا فهى من العريش مثلنا .. لكنها غادرتها منذ زمن بعيد ورحلت إلى القاهرة .. حيث تزوجت هناك .. وقد توفى زوجها من خمسة أعوام تقريبًا و ...

قاطعته قائلة :

- يمكننى أن أحضر لك الجواد لتذهب به إلى موقف السيارات ..

فالسيارة معطلة فيها صمام مسدود .. وعجلة مفرغة من الهواء .

تجهم وجه (همام) وهو ينظر إليها قائلاً :

- هل انتظرت حتى هذه اللحظة لتخبرينى بذلك ؛ لا بد أن هذا من تدبيرك .. على أية حال إننى لن أمتطى جوادًا وأنا أرتدى هذه الثياب الأنيقة ..

ثم إننى أشعر ببعض الألم فى ظهرى .. مما يحول بينى وبين ركوب الجياد .

سألته (ليلى) قائلة :

ـ وما الذى تريد منى أن أفعله ؟

قال لها بلهجة آمرة :

ـ أصلحى السيارة .. نظفى الصمام وانفخى العجلة فأنت لديك دراية كافية بذلك .

غادرت (ليلى) المكان واتجهت إلى الفناء الخلفى للدار ، حيث توجد السيارة القديمة الطراز ، فى حين أسرع عمها خلفها لاحقًا بها .

لكنها توقفت أمام السيارة العتيقة دون أن تفعل شيئًا من أجل إعدادها للسير .

فنظر إليها عمها بدهشة تمتزج بالغضب قائلاً :

ـ لماذا تقفين جامدة كالتمثال هكذا ؟ هيا أصلحى هذه السيارة اللعينة .

لكنها قالت له وقد بدت على وجهها ملامح الإصرار :

ـ إذا أردت أن أصلحها لك .. أعطنى عشرة جنيهات.

حدق فى وجهها .. قائلا بانفعال :

ـ عشرة جنيهات .. إنك لن تنالى قرشًا واحدًا .. وستصلحين هذه السيارة برغم أنفك .. ففتاة مثلك لن يمكنها أن تبتزنى بهذه السهولة .

عقدت ذراعيها أمام صدرها قائلة بتصميم وتحد :

ـ وأنا لن أصلح لك هذه السيارة .

لوح بعصاه الغليظة فى وجهها قائلاً :

ـ سأكسر عظامك بعصاى أيتها الفتاة الحقيرة .

قالت له وهى مستمرة فى عنادها دون أن تهتز لتهديده :

ـ يمكنك أن تكسر عظامى كما تقول .. لكنك لن تجد من يصلح لك السيارة الآن .. فضلاً عن أنك لن تجد من يستطيع أن يقودها لك حتى تلحق بالموعد الذى حددته للسفر .

أدرك أن ما تقوله صحيح فخفض عصاه قائلاً :

ـ إذن فأنت تستغلين الظروف !

قالت له منفعلة :

ـ أنت تعرف أننى لا أريد هذه النقود لنفسى .. إنها من أجل ابنتك المريضة .. إنها بحاجة إلى الذهاب إلى طبيب وإلى الدواء .. وقد أخبرتك بذلك عدة مرات من

قبل .. وتوسلت إليك أن تعطينى نقودًا لعلاجها لكنك رفضت .. وكأن هذه الطفلة المسكينة لا تمت لك بصلة .

قال لها بخشونة :

- إننى لم أذهب طوال حياتى لطبيب .. وكل أبناء العريش يستخدمون الأعشاب الطبية فى العلاج .. وهى تشفيهم دائمًا .

وأنا أحضرت لك العديد من الأعشاب الصحراوية الفعالة لتستخدميها فى علاج الطفلة ، لكنك لم تحسنى استخدامها .

- لقد أحضرتها لأنها لم تكلفك شيئًا .. ولأنك تأبى أن تنفق أى مبلغ من المال على علاج ابنتك .

وقد وصلت الطفلة لحالة لم تعد تجدى معها الأعشاب .. إنها بحاجة لطبيب لكى يشخص مرضها.. كما أنها بحاجة لعلاج فعال .. وهذا أمر يحتاج إلى نقود .

قال لها بضيق :

- حسن .. لا داعى لإضاعة الوقت أكثر من ذلك سأعطيك خمسة جنيهات .

قالت له بإصرار :

- بل عشرة .

أطلق زفرة طويلة وهو يكظم غيظه .. ثم مد يده فى جيبه ليخرج منها العشرة جنيهات ويقدمها لها قائلًا :

- هذه مصاريف كثيرة .. وسعال الطفلة ليس شديدًا إلى هذا الحد .

لكنها لم تجبه بشىء .. بل وضعت النقود فى صدرها ثم عكفت على السيارة لإصلاحها .

والواقع أن السيارة كانت قد استعملت ثمانية عشر عامًا فوق أرض وعرة غير ممهدة .. دون أن يمدها عمها بأى قطع غيار جديدة بدلًا من تلك التى تآكلت واعتراها الصدأ .. وحتى الزيت والشحم كانت قلما تظفر بهما .. حتى أصبح الاعتماد عليها فى الانتقال من مكان إلى آخر أمرًا غير مأمون .

ولولا عناية (ليلى) التى استطاعت بذكائها وحبها الشديد للتعلم أن تعرف الكثير عن ميكانيكا السيارات ، من زياراتها المتكررة للقرية المجاورة ومشاهدتها لابن عمة والدتها الذى كان يحترف إصلاح السيارات،

لما استطاعت هذه السيارة أن تواصل السير كيلومترًا واحدًا .

لم يكن لديها سوى منفاخ صغير .. فاستغرق نفخ العجلة منها وقتًا ومجهودًا حتى تمكنت من نفخها .

بينما قال لها عمها متعجلاً :

- متى تنتهين من إصلاح هذه السيارة اللعينة ؟

أجابته وهى تلهث :

هأنذا قد انتهيت .. إن هذه السيارة قد احتملت أكثر مما تحتمل أى سيارة أخرى .. وليس بعيدًا ذلك اليوم الذى تعطل فيه نهائيًا ..

قال لها وهو يتأهب لركوب السيارة :

- إنها مسئوليتك على أية حال .. فأنت التى ألححت علىّ فى شرائها ، كما أنك الوحيدة التى تعرف كيف تجعلها صالحة للسير وتتولى شئون صيانتها .

قالت له وهى تجلس أمام عجلة القيادة .

- لا تنس أنك قد اشتريتها بثمن بخس .. ولولاى لما تمكنت من بيعها حتى كقطع من الحديد الخردة .

نظر إلى الكلب الذى قفز إلى المقعد الخلفى بضيق قائلاً :

- ألا يمكننا أن نذهب دون اصطحاب هذا الكلب معنا ؟

قالت له وهى تدير محرك السيارة :

- إننى لا أستطيع أن أذهب إلى أى مكان دونه .

قال لها وهو مستمر فى كظم غيظه ، وقد ود لو أن الظروف لم تكن بالنسبة له غير مواتية الآن لينهال عليها ضربًا وتعنيفًا :

- حسن .. كفانا ما أضعناه من وقت ، ودعينا نرحل عن هنا .

أعملت يديها الصغيرتين فى عجلة القيادة ، لتنطلق بها بأقصى ما تسمح به إمكانيات السيارة من سرعة .

وما زالت السيارة منطلقة بهذه السرعة حتى بلغت نقطة التقاطع ، التى يتفرع عندها الطريق إلى فرعين ، أحدهما يؤدى إلى موقف السيارات والآخر يؤدى إلى استراحة حكومية مهجورة ، محاطة بسور خشبى متآكل وأعشاب برية كثيفة .

ثم أخذت السرعة تقل تدريجيًا حتى صارت السيارة كأنها تحبو .

فسألها عمها قائلاً :

ـ ماذا حدث ؟

ـ (بلف) العجلة متآكل والهواء يتسرب منه .

وما لبثت أن توقفت السيارة تمامًا .

فصاح بها قائلاً :

ـ دعيها تتحرك !

ـ مستحيل .

ونزلت إلى العجلة وأخذت تنفخها مرة أخرى .

وبينما هى مستمرة فى ذلك إذ مرت بها سيارة مسرعة مندفعة فى طريق الاستراحة الحكومية بسرعة زائدة ، برغم العلامة الموضوعة فى أول الطريق للتنبيه إلى عدم صلاحية الطريق لقيادة السيارات ..

وكان كلبها واقفًا بجوارها يهز ذيله هزات منسجمة مع حركة المنفاخ ..

عندما أقبلت هذه السيارة المسرعة وكادت أن تصدمه .. لولا أن سائقها تمكن من تفاديه فى اللحظة الأخيرة .

غير أن هذه المفاجأة روعت الكلب وأطارت صوابه ، فانطلق يعدو خلف السيارة .

وأخذت (ليلى) تصفر له تارة وتصيح بسائق السيارة مرة أخرى .. لكن صفيرها وصياحها لم يجديا فى توقف السيارة أو عودة كلبها .. وما لبثت أن اختفت السيارة من أمام عينيها كما اختفى (عنتر) معها .

* * *



٢ - لقاء عاصف ..

لم تكن قد نفخت العجلة تمامًا .. لكنها نزعت المنفاخ منها وألقته داخل السيارة فى حركة تنم عن القلق الشديد .. ثم أخذت تحول السيارة إلى طريق الاستراحة .. لكن عمها منعها من ذلك قائلاً :

- إلى أين تذهبين ؟

- سأحضر (عنتر) .

- إن (عنتر) يعرف طريقه إلى الدار .. أما أنا فلا يمكن أن أتأخر أكثر من ذلك .

قالت له مترددة :

- ولكن ..

لكنه قاطعها بنبرة حاسمة قائلاً :

- أوصلينى إلى موقف السيارات أولاً .. ثم عودى للبحث عن كلبك فيما بعد .. فإنك لن تدركى هذه السيارة مهما حاولت .. وهى لا يمكن أن تتوغل الآن فى الطريق بعيدًا .. فلابد أن تقف عند علامة الخطر الثانية .

أطاعت (ليلى) عمها وعادت لتقود السيارة إلى موقف السيارات المتجهة إلى الأقاليم ، حيث استطاعت أن تصل إليه خلال عشر دقائق .

وما لبث أن أسرع بمغادرة سيارته فى طريقه إلى السيارة المتجهة إلى القاهرة .

وهو يوصى الفتاة قائلاً :

- لا تسرفى فى استخدام خزين المنزل من أطعمة وزيوت وسمن .. فأنا قد أحصيت كل شىء بدقة قبل مغادرتى للمنزل .

كما لا تنسى إطعام الأغنام والمواشى والعناية بالخضراوات .

وعليك إعداد المنزل بصورة لائقة عندما أعود ومعى زوجتى وابنتها .. فأنا لن أتأخر فى عودتى كثيرًا .. ولن أجعلك تنعمين بغيابى عن المنزل كثيرًا .

ظلت (ليلى) جالسة فى السيارة وهى ترقبه بعد أن تحركت به السيارة الأخرى قائلة لنفسها :

- لقد أوصانى بكل شىء ونسى أن يوصينى بطفلته الصغيرة المريضة .

وتنهدت وهى تردف قائلة :

- سامحك الله يا عمى .

ظل سائق السيارة المسرعة منطلقًا بها فى الطريق الوعر ، برغم ما كان يصادفه من منخفضات ومرتفعات حتى بلغ العلامة الثانية .. فأوقف السيارة والتفت إلى زميله قائلاً :

- هذه هى العلامة الثانية .. وأظن أنه من الأفضل أن نتوقف هنا .

قال له رفيقه :

- فلنترك السيارة إذن ونواصل الطريق على أقدامنا .

نظر (طارق) إلى حذائه الجديد اللامع .. ثم إلى الطريق الذى تختلط فيه الرمال بالأتربة بالأحجار الصغيرة قائلاً :

- هل تريد منا أن نواصل السير فى هذا الطريق الوعر ؟

أجابه (عادل) قائلاً :

- ولِمَ لا ؟ ما دمت أتأهب لشراء هذه الأرض فلا بد أن أرى كل شبر فيها على الطبيعة .

قال له (طارق) محتجًا :

- أما زلت راغبًا فى شراء هذه الأرض الجدباء ؟

تأمل (عادل) المكان حوله قائلاً :

- بلى .. أظن أننى سأشتريها ، فموقعها يعجبنى.. ويناسب مشاريعى وطموحاتى تمامًا .. فضلا عن أن سعرها مناسب تمامًا .

قال (طارق) بدهشة :

- ولكن تأمل المكان حولك .. إنه بحاجة لمصاريف باهظة وجهد شاق وغير عادى لكى تحقق فيه مشروعك السياحى الذى تزمع تنفيذه .

- إن العائد الذى سيأتى من وراء هذا المشروع سيفوق أى جهد أو مصاريف أبذلها .

- لا أظن أنك درست هذا الأمر جيدًا .. فهذا المكان بعيد عن مركز الجذب السياحى .. وكما ترى فإنه حتى الحكومة والمحافظة هجرتاه .. واستغنتا عن تلك الاستراحة الحكومية المخصصة لمهندس البترول بعد أن اكتشفت عدم وجود بترول فى المنطقة .. واعتبرتها أرضًا ميتة .

قال (عادل) بثقة :

- إذن فسوف أحييها مرة أخرى .. وهذه الأرض

يمكن بشىء من الجهد والمال والدعاية المناسبة ، أن تأتى بثروة لا تقل عن تلك التى كان يمكن أن تأتى بها لو تبين وجود آبار بترولية بها .

- اسمع يا (عادل) .. أنت عنيد .. وأظن أن المسألة لا تعدو بالنسبة لك أن تكون نوعًا من التحدى .. لكنى أحذرك .. إن عنادك هذه المرة يتسم بالحماقة .. وإن التحدى من هذا النوع لا يجلب لصاحبه إلا الخراب .

ابتسم (عادل) قائلاً :

- من الأولى أن توجه هذه النصيحة لنفسك .. فقد أكون عنيدًا وصلبًا .. ولكنى لا أفعل ذلك إلا بعد أن أدرس الأمور بدقة .. وأتخذ قرارى بعد تفكير عميق .. ثم أصر على تنفيذه وأبذل الجهد المناسب من أجل تحقيق الهدف الذى استقر عليه تفكيرى وقرارى .

أما أنت فإنك تقدم على تنفيذ الأشياء بتهور ورعونة طالما جلبتا لك ولى الكثير من المتاعب .

قال (طارق) دون أن يعبأ بملاحظته الأخيرة :

- هل يعنى هذا أنك قد اتخذت قرارك بشأن شراء هذه الأرض من الحكومة ؟

- لم أستقر على هذا بعد .. لكنى أشعر بحماس شديد من أجل إتمام هذه الصفقة .

لقد جئت إلى هنا مرتين من قبل .. لكن هذه هى المرة الأولى التى أتوغل فيها هكذا بتصريح خاص من المحافظة .. وأظن أننى سأشتريها .

هز (طارق) كتفيه قائلاً :

- إنها نقودك على أية حال .

- ألن تأتى معى ؟

- اذهب أنت وسأنتظرك هنا .

تطلع (طارق) إلى الكلب الذى كان مقبلاً عليهما وهو ينبح بشدة قائلاً :

- انظر إلى هذا الكلب .. لا بد أنه كان يتبعنا طوال الطريق .

- إنه الكلب الذى كدت أن تدهسه وأنت منطلق بالسيارة كالريح .

- هذا لأننى كنت قد مللت من الطريق وأرغب فى الانتهاء من هذه الرحلة بأى ثمن .

لكن يبدو أن هذا الكلب يستعد لمهاجمتنا .. إنه ينبح علينا بشراسة .. ومن الأفضل أن تصوب إليه رصاصة من مسدسك .

قال له (عادل) وهو يقترب من الكلب :

- لا داعى لذلك .. لقد أفزعته المفاجأة .. وأظن أنه بحاجة لمن يعمل على تهدئته .. وإعادة السكينة إليه .

لكن (طارق) قال له محذرًا وهو يراه يزداد اقترابًا من الكلب الذى كان يزمجر بشدة وهو ينظر إليه :

- (عادل) .. احترس !

لكن (عادل) جثا على إحدى ركبتيه أمام الكلب ، وهو يدعوه إلى الهدوء قائلاً :

- ارقد يا مسكين حتى تهدأ وتستريح من عناء هذا الطريق الطويل الذى قطعته .

وبدا وكأن (عنتر) قد تفهم كلماته واستجاب لها .. فأطاعه ورقد عند قدميه .

وربت (عادل) على رأسه بيد تدل على حبه للكلاب .. وخبرته فى التعامل معها .

كما أن (عنتر) أحس منه هذه العاطفة .. فسكن إلى لمسة يده وخمدت ثورته فى الحال .

نظر إليه (طارق) قائلاً :

- كيف استطعت أن تهدئ من ثورته هكذا ؟ لقد ظننت للحظة أنه سيفتك بنا .

قال له (عادل) وهو مستمر فى مداعبة الكلب :

- إنه من سلالة ممتازة من الكلاب .. وهو ليس عدوانيًا بطبعه .. لكنه كان مفزوعًا كما أخبرتك .. وقد جعلته يشعر بصداقتى له فأحس نحوى بالألفة والطمأنينة .. كما أن لمسة يدى له هدأت من روعه.

ابتسم (طارق) قائلاً :

- إن لديك خبرة كبيرة فى التعامل مع الكلاب .

- إنه يشبه كلبًا كنت أقتنيه فى أثناء إقامتى فى (ألمانيا) .. وقد حزنت كثيرًا بعد موته .

- وكيف مات ؟

- أدركته الشيخوخة .

ونظر إلى الكلب وهو يردف قائلاً :

- أخشى أن يكون قد ضل طريقه .

قال له (طارق) وهو يستند إلى السيارة بجذعه :

- ربما كان كلبًا ضالاً .. وفى هذه الحالة .. فإن الصحراء كلها تتساوى بالنسبة له .

- لا أظن ذلك .. هل نسيت ؟ لقد كان واقفًا بجوار شخص منهمك فى تصليح سيارته ؟

- نعم .. أظن أنها فتاة .. كما أننى لمحت شخصًا آخر جالسًا فى السيارة .

- إذن فهو ملك لأحد الأشخاص ولا بد أنه سيبحث عنه .. على أية حال إنه يبدو ظمآنًا .. وقد أجد ماء قريبًا .. فلآخذه معى .

وأشار إليه أن يتبعه .. فتبعه الكلب فى هدوء وهو يسير إلى جواره فى اطمئنان بينما (طارق) ينظر إليه بدهشة لقدرته العجيبة على السيطرة على الكلب بهذه السرعة .. واستجابة الكلب له .

قال له (عادل) وهو يشير إليه :

- هيا يا صديقى .. سنستكشف الطريق ونبحث عن ماء .

واستطرد قائلاً لـ (طارق) :

- أما أنت .. فانتظر هنا .. ما دمت لا تريد أن تأتى معى .

- حسن .. ولكن لا تتأخر علىّ .. فأنا لا أطيق البقاء طويلاً فى هذا السكون الممل .

وجلس (طارق) على الأرض وقد مد قدميه أمامه ، وارتكز بظهره إلى السيارة ، واضعًا ساعده فوق عينيه اللتين أغمضهما ليحميهما من وهج الشمس .

* * *

لو كانت (ليلى) تعرف أن (عنتر) سيعود إلى المنزل لعادت متمهلة مطمئنة .. لكنها كانت تخشى أن يكون الرعب قد استولى عليه فظل يجرى حتى يهلك أو يضل الطريق .

ولذلك فإنها كانت فى قلق شديد .. ولم تذهب إلى المنزل والمزرعة رأسًا .. لكنها عرجت إلى الطريق التى انطلق فيها كلبها يتبع السيارة .

وكانت تعجب من أمر ذلك السائق الذى اندفع بسيارته فى هذا الطريق ، برغم العلامة الظاهرة التى كانت تدل على أن الطريق غير صالحة للسيارات .

لاسيما إذا كانت سيارة كبيرة فاخرة مثل السيارة التى يقودها ذلك السائق المتهور ..

أما سيارتها فليست كبيرة ولا فاخرة .. لكن سيرها

على هذا الطريق ليس بالأمر الجديد أو الغريب ، لأنها كثيرًا ما سارت فيه وهى تدرب (عنتر) على حراسة الأغنام .. وعندما كانت تنشد الهدوء والوحدة بعيدًا عن قسوة عمها وعن أوامره ونواهيه .

وقطعت (ليلى) من الطريق مسافة طويلة .. وبدأت السيارة تهدد بالإضراب عن العمل ، ومع ذلك فإنها لم تعثر على (عنتر) ولم تقف له على أثر .

لكن يجب أن تعثر عليه .. وبأسرع وقت .. فإن (زاهية) وحدها فى المنزل .. وقد تصحو من نومها فتنخرط فى البكاء أو تعاودها آلام مرضها .

وما لبثت أن لمحت السيارة التى كادت أن تصدم كلبها.. فاقتربت بسيارتها حيث تقف السيارة الفاخرة.

وغادرت سيارتها حيث وجدتها خالية .. لكنها لم تلبث أن رأت الشاب الجالس بجوارها مستندًا إليها ، وقد رفع ساعده عن عينيه التى ضاقت حدقتاها من شدة تأثير إشعاع الشمس ، لينظر إلى الفتاة التى وقفت أمامه ، وقد ارتسمت أمارات الغضب والقلق فى عينيها .

لم يكن (طارق) عندما مر عليها بسيارته

قد رأى سوى فتاة جاثية على ركبتيها وقد انشغلت بإصلاح سيارتها .. ولم يكن قد رأى وجهها الجميل المشرق برغم شحوبه .

أما الآن وقد رأى قوامها النحيف الممشوق ، وذلك الشعر الناعم الأسود المنسدل ، والوجه المشرق وكأنه يستمد من حرارة الشمس جمالاً نادرًا يتحدى شحوبه .. فقد اختلف الأمر بالنسبة له .

وما لبث أن هب واقفًا وهو ينظر إليها بدهشة بينما فاجأته بعاصفة من الغضب وهى تحتد عليه قائلة :

- كيف سمحت لنفسك أن تفعل هذا بكلبى ؟ لقد أوشكت على أن تقتله .. أين هو الآن ؟ لقد رأيته وهو يتبع سيارتك بعد أن أفزعته بقيادتك المتهورة .

وكانت تستعين بإحدى يديها للتعبير عن شدة غضبها .. أما يدها الأخرى فكانت موضوعة فى خاصرتها على هيئة زادتها جمالاً .

وما لبث أن قال لها :

- ألا يمكنك أن تتمهلى فى غضبك الهادر هذا حتى أستطيع أن أحدثك قليلاً ؟

قالت له دون أن تتخلى عن انفعالها :

- إذا لم أجد كلبى فستعرف كيف يكون جزاؤك .

ابتسم (طارق) قائلاً وقد أدهشته حدتها التى لا تتفق مع جمالها وتكوينها الرقيق :

- لكنك ستجدينه .. وأنا أعرف أين هو الآن .. فاطمئنى واهدئى ..

ضربت الأرض بقدمها الصغيرة قائلة :

- أخبرنى فى الحال .. أين هو ؟

- إنه مع ابن خالتى.. فانتظرى قليلاً حتى يعود به.

سألته قائلة :

- من هو ابن خالتك ؟ ولماذا أخذه معه ؟

- دعينا نتعارف أولاً .. أنا أدعى (طارق) أما ابن خالتى فيدعى (عادل) .. (عادل فوزى) من كبار رجال الأعمال ومن أصحاب الملايين أيضًا .

قالت له (ليلى) وهى مستمرة فى عصبيتها :

- لا يعنينى ابن خالتك ولا ملايينه فى شىء .. إننى أريد كلبى .

ابتسم لها قائلاً :

- برغم عصبيتك فإن لك صوتًا جميلاً مثل وجهك .. أرجوك لا داعى لهذا الغضب .

أنا آسف لأننى أزعجت كلبك .. لكننى لم أقصد ذلك مطلقًا .

- لا يبدو عليك شىء من الأسف ..

- بل أنا آسف حقًا .. لكنها ابتسامتى التى لا تفارق فمى هى التى تجعلنى أبدو أمامك مستهترًا بما حدث .

والآن ألا تخبريننى باسمك ؟

قالت (ليلى) بصبر نافد :

- إن اسمى لا يعنيك فى شىء .. من فضلك دلنى على المكان الذى ذهب إليه ابن خالتك هذا ومعه (عنتر) .

اتسعت ابتسامته قائلاً :

- (عنتر) .. هل كلبك اسمه (عنتر) ؟ هأنذا قد عرفت اسم كلبك والآن ألا تخبرينى باسمك ؟

- كلا .. لن أخبرك به .

عقد ذراعيه أمام صدره قائلاً :

- وأنا لن أدلك على مكان (عنتر) إلا إذا أخبرتنى عن اسمك .

قالت له متبرمة :

- حسن .. اسمى (ليلى) .
عاد ليبتسم قائلا :
- اسم جميل يناسب صاحبته .
- والآن أين يمكننى العثور على كلبى ؟
أشار إلى الجهة التى ذهب إليها ابن خالته وبصحبته الكلب قائلا :
- لقد ذهب مع (عادل) إلى تلك الاستراحة المهجورة .. وسوف يحضره معه بعد قليل .
قالت له وهى تسرع إلى سيارتها :
- وهل تظن أنى أستطيع أن أنتظر حتى يعود ؟
نظر إلى السيارة قائلا :
- لكن هذه السيارة تبدو فى حالة سيئة للغاية .. ولا أظن أنها تستطيع أن تسير فى هذا الطريق الوعر .
لكنها قفزت أمام عجلة القيادة دون أن تعبأ بقوله .. وانطلقت بها برغم وقوفه فى طريقها مما اضطره إلى التخلى عن الطريق وهو يصيح قائلاً :
- لا بد أنك مجنونة .. فسوف تتحطمين مع هذه السيارة المتهالكة !
لكنها واصلت طريقها دون أن تأبه لصياحه .

* * *

٣ - سنلتقى من جديد ..

بعد جهد ومشقة من أثر وعورة الطريق وصعوبة تضاريسه ، لمحت (ليلى) كلبها بصحبة (عادل) وهما قادمان من الاستراحة المهجورة فاقتربت منهما محدثة زوبعة من الرمال والأتربة ، جعلت (عادل) يسعل بشدة .. وما لبثت أن هبطت من السيارة لتندفع نحو كلبها وهى تحتضنه ، وقد اندفع نحوها بدوره وهو يهز ذيله فى غبطة وسعادة شديدة لرؤيتها .
بينما أخرج (عادل) منديلاً ليمسح به وجهه وعينيه من أثر الرمال والأتربة التى علقت به .. وهو ينظر إليها قائلاً :
- إذن فهو كلبك ؟
مسحت (ليلى) بيدها على عنقه قائلة :
- نعم .
- لم يكن الأمر يستحق كل هذه الزوبعة التى أثرتها من أجل استرداده .
نظرت إليه فى غضب قائلة :

- من الذى أذن لك بسرقة كلبى ؟
قال لها مندهشًا :
- سرقته ؟ لقد أخذت الكلب معى لأروى ظمأه .. فقد كان يعانى عطشًا شديدًا .
ونظر إلى سيارة عمها قائلاً :
- وهذه السيارة .. هل هى سيارتك ؟
- أجابته قائلة :
- ليس هذا من شأنك .
- بل هو من شأنى .. عندما تقودينها بهذه الطريقة المتهورة وتملئين عينىَ وأذنىَ وثيابى بكل هذه الأتربة والرمال .. من الذى علمك أن تقودى سيارة متهالكة كهذه فى هذا الطريق الخطر ؟
قالت له (ليلى) بثقة :
- إنه لا يكون خطيرًا إلا للذين لا يعرفون كيف يقودون السيارة ، أما أنا .. فأعرف .. وقد جئت مرات كثيرة إلى هنا .
نظر إلى السيارة قائلاً بسخرية :
- وهل تسمين هذه سيارة ؟
قالت له (ليلى) بكبرياء :

- حقًا إنها لا تشبه السيارة الأنيقة التى جئت بها إلى هنا .. لكنها تؤدى الغرض منها على أية حال .
- لكنك لم تقولى لى .. ماذا تفعل فتاة مثلك .. بسيارة كهذه فى مكان ناء كهذا ؟
- إننى أقيم هنا .
نظر إليها بدهشة قائلاً :
- هنا ؟ فى هذا المكان ؟
هزت كتفيها قائلة :
- وما الغريب فى هذا ؟
- لا أظن أن هذا المكان يلائم فتاة مثلك .
- بل يلائمنى تمامًا .
- وهل تقيمين هنا بمفردك ؟
قالت (ليلى) وهى تداعب كلبها :
- بل أقيم مع عمى فى منزله ومزرعته التى تبعد عن هنا بمسافة خمسة كيلومترات تقريبًا .
نظر إلى الكلب قائلاً :
- لقد أحببت كلبك هذا .
ضمت (ليلى) الكلب إلى صدرها قائلة :
- إنه صديق مخلص لى .. كما أنه أمهر كلب فى حراسة الأغنام فى هذه الأرجاء .

سألها قائلاً :

- هل تبيعينه لى ؟

قالت له وهى تربت بيدها الرقيقة على رأسه :

- لا يمكننى أن أفرط فى (عنتر) بأى حال من الأحوال .

- سأدفع لك خمسين جنيهًا ثمنًا له .

قالت له بإصرار :

- ولا خمسمائة جنيه .

ضحك قائلاً :

- إذن سأدفع ستمائة .

- لقد التقيت ابن خالتك فى الطريق قبل أن آتى إلى هنا .. وقد علمت منه أنك شخص ثرى .. لكننى لن أبيع لك (عنتر) ولو دفعت لى ثروتك كلها .

- هل تعرفين أن أحدًا لم يرفض لى طلبًا مطلقًا ؟

- إن ثراءك لا يمكن أن يحقق لك كل ما تطلبه .

واصطحبت كلبها وهى تردف قائلة :

- والآن .. وداعًا يا سيدى .

ولكن قبل أن تركب السيارة التى سبقها إليها كلبها التفتت إليه قائلة :

- هل تحب أن أوصلك إلى حيث توجد سيارتك ؟

قال لها وهو يتظاهر بالفزع :

- معك ؟ إننى لم أستغن عن حياتى بعد .. كلا إننى سأبقى هنا قليلاً .. وأرجو أن تبلغى (طارق) أننى سأعود إليه بعد ساعة تقريبًا .

نظرت إليه باستغراب وهى تسأله قائلة :

- بالمناسبة .. ماذا تفعل أنت وابن خالتك فى هذا المكان ؟

- إننى أنوى شراء مساحة شاسعة من الأراضى هنا تشمل هذا المكان .

- هل أنت من العاملين فى مجال البترول ؟

- كلا .. إن استثماراتى تكون دائمًا فى مجال السياحة .. وأنا أنوى أن أقيم مشروعًا سياحيًا كبيرًا فى هذه المنطقة .

قالت له بدهشة :

- هنا ؟ لكن هذا المكان لا يصلح لإقامة مشروع كهذا .

قل لها بلهجة تدل على ثقة واعتداد شديدين بالنفس:

- إذا قررت أنه يصلح فلا بد أن يكون كذلك .. وحتى لو لم يكن صالحًا فسوف أجعله كذلك .

- يبدو أن ملايينك تجعلك تظن أنك قادر على عمل أى شىء تريده .

- كلا .. ليس للأمر علاقة بالمال .. بل بالخبرة .. إن هذا الموقع فريد وهو قريب من شاطئ العريش .. وخبرتى تنبئنى بأنه يصلح تمامًا لمشروع سياحى كبير .

- وما حجم المساحة التى تنوى شراءها ؟

- مساحة كبيرة .. تتضمن منزل عمك ومزرعته.. وبعض المنازل والقرى العشوائية هنا .

- ومن أدراك أن عمى أو غيره سيوافقون على البيع لك ؟

- أنا لن أشترى منهم شيئًا .. بل سأشتريها من الحكومة .

- ولكن هذه منازلهم وقراهم .. وأراضيهم .. وليست أراضى الحكومة .

- بل هى أراضى الدولة .. وإذا كانت الدولة قد سمحت لهم لفترة من الزمن بالاستيلاء عليها بوضع

اليد .. فقد آن الأوان لتصحيح هذا الوضع الخاطئ .. وأظن أنهم تلقوا من الإنذارات ما يكفى لمغادرة هذه المنطقة التى استولوا عليها دون أن يكون لهم حق فى ذلك .

- لكنك بذلك تشرد أسرًا وعائلات عاشت هنا لفترة طويلة .

- ليس هذا ذنبى .. لقد سبق للدولة أن أنذرتهم ووفرت لهم المناطق البديلة .. لكنهم رفضوا أن ينتقلوا إليها .

- أنت لا تعرف شيئًا عن العرايشية (أهل العريش) .. إن جزءًا من تكوينهم بدوى وجزءًا آخر حضرى .

وهذا الجزء البدوى فى تكوينهم يدفعهم إلى الترحال .. لكنهم إذا ما استقروا فى مكان واستوطنوه .. فإنه من الصعب أن تنزعهم منه .

نظر إليها باستغراب قائلاً :

- إنك تتكلمين بأسلوب يتجاوز عمرك ، والبيئة التى تعيشين فيها على نحو يدهشنى .

لكن ما دمت متسعة الأفق على هذا النحو .. فلا بد

أنك تعرفين أن الاستيطان غير القانونى لا يمكن أن يولد وضعًا قانونيًا .. وأن هؤلاء الذين تتحدثين عنهم سيتعين عليهم أن يرحلوا عن هذه الأرض حينما أنتهى من شرائها .. وستكون لى السلطة القانونية التى تمكننى من ذلك .

- أيًا كانت السلطة التى ستحوزها .. فإنك ستواجه صعوبات جمة فى إخلاء هذه المنطقة من سكانها برغم قلة عددهم .. فالناس الذين يعيشون هنا يتميزون بالصلابة والعناد .

- إننى أقدر قلقك بشأن المنزل والمزرعة التى يحوزها عمك والتى تعيشين فيها معه .. ولكن ..

قاطعته قائلة :

- إننى لا أحفل بمزرعة عمى ومنزله .. بل ربما سأكون سعيدة للغاية إذا ما أخذتها منه .. كما أخذ أموال أمى وعمرها وسلبها لنفسه .. لكنى مهتمة بالأسر البسيطة التى تعيش هنا وبالأبناء والأهالى الذين لا يعرفون لهم مكانا غير هذا يقيمون فيه .

قال لها مفكرًا :

- ربما أمكننى أن أدبر الأمر بالنسبة لهم .

سألته قائلة :

- كيف ؟

- لا أدرى .. ولكن ليس هذا هو ما يشغلنى الآن .

قالت له وهى ترمقه بنظرة تنطوى على اتهام :

- بالطبع .. فإن أهم ما يشغلك الآن هو التفكير فى استثمار أموالك على النحو الذى يعود عليك بأقصى ربح .. حتى ولو على حساب الناس البسطاء .

قال لها وقد بدأت ملامح الضيق ترتسم على وجهه من مجادلتها له :

- أظن أننا قد أضعنا وقتًا طويلاً فى هذا الحديث .. وأنا لست ممن يحبون إضاعة وقتهم فيما لا جدوى منه .

قالت له وهى تستعد لإدارة محرك السيارة .

- وأنا أيضًا أضعت من وقتى الكثير فى الحديث معك .

راقبها وهى تنصرف قائلاً :

- يا لها من فتاة ! إنها تشبه زهرة الصبار فى مرارتها وأشواكها .

* * *

كان (طارق) لا يزال جالسًا فى مكانه ، وعيناه عالقتان بالجهة التى اختفت فيها السيارة .. فلما ظهرت تنفس الصعداء وقام واقفًا وهو لا يكاد يصدق أنها قد عادت سالمة .

ما لبث أن أشار لها لتقف .. فأوقفت سيارتها .. حيث أسرع إليها وعلى وجهه تلك الابتسامة التى تشع جاذبية قائلاً :

- إنى أحنى لك رأسى تقديرًا لمهارتك فى قيادة السيارة .. وأرى أنك مسرورة بعد أن وجدت كلبك .. ولعلك قد سامحتنى الآن .

والواقع أن غضب ليلى ذاب كالجليد تحت شمس ابتسامته .

فوجدت نفسها تبتسم له قائلة :

- لا فائدة من الاستمرار فى الغضب من شخص لن أراه مرة أخرى .

قال لها وهو يستند بيده إلى حافة نافذة السيارة :

- لكنى أريد أن أراك ثانيًا .

سألته ببراءة قائلة :

- لماذا ؟

- لأننا قد نكون صديقين .. أليس هذا سببًا كافيًا ؟

هزت رأسها قائلة :

- لا أظن أننا نستطيع أن نكون صديقين .

- وما المانع ؟

- لأنه لا توجد صداقة بين رجل وامرأة فى العريش .

قال لها بصوت هادئ النبرات :

- إن الصداقة يمكن أن توجد بين الرجل والمرأة فى أى مكان .. ثم إننى أستطيع أن أعلمك أشياء كثيرة لم تعرفيها من قبل .

قالت له بثقة :

- إنى أعرف أكثر مما تعرف أنت .

ضحك قائلاً :

- لا أظن أنك تعرفين قيادة الزوارق البخارية .

نظرت إليه بدهشة قائلة :

- الزوارق البخارية ؟

- نعم واليخوت أيضًا .. ألم يسبق لك أن رأيت زوارق بخارية أو يخوتًا .

قالت له سريعًا :

- أحيانا كنت أذهب إلى شاطئ العريش .. وأرى هذه الزوارق وهى تنطلق فى البحر كالموج الهادر .

قال لها وهو يحاولْ أن يستميلها :

- ألا تحبين أن تركبى أحدها ؟

سألته قائلة :

- هل تمتلك أحد هذه الزوارق ؟

- أنا لا .. ولكن (عادل) ابن خالتى لديه اثنان من هذه الزوارق وهو يسمح لى باستخدام أحدهما كما أشاء .

نظرت إليه وقد اعتراها الفضول قائلة :

- هل أتى بأحدها معه ؟

- نعم .. وهو يحتفظ به فى المراسى المطلة على شاطئ العريش أمام الفندق الذى نقيم به .

قالت له وقد تجهم وجهها عندما تذكرت أن هذا الزورق ملك لـ (عادل) :

- كلا .. لا أظن أننى أحب أن أضع قدمى على شىء يمتلكه ابن خالتك .

سألها قائلا بدهشة :

- لماذا ؟

قالت (ليلى) سريعًا :

- لأننى لم أسترح كثيرًا لابن خالتك هذا .

- على أية حال نستطيع أن نستأجر زورقًا من هذا النوع .. لو وافقت على اصطحابى لك .

قالت له وقد بدا عليها التردد .. إذ تنازعها فضولها الفطرى تجاه الأشياء ، وحياؤها الذى يمنعها من مصادقة شاب مثله :

- سأفكر .

قال لها ملحًا :

- لا وقت للتفكير .. فسوف نغادر هذا المكان بعد يومين فقط .

- أن تعودا إلى هنا مستقبلاً ؟

- ربما .. لو استقر رأى (عادل) بصفة نهائية على شراء هذه الأرض ، فسوف نعود بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر لاتخاذ الترتيبات اللازمة .

قالت له سريعًا :

- إذن أرجو ألا تعودا أبدًا .

تطلع إليها بدهشة قائلا :

- هل تكرهيننى إلى هذا الحد .

قالت له بنفس الاندفاع الفطرى :

ـ ليس أنت .. ولكن ابن خالتك .

ـ لماذا ؟ هل أغضبك إلى هذا الحد ؟

ـ إنه شخص متغطرس .. يظن أنه يستطيع أن يشترى الدنيا كلها بماله .

قال لها وهو يتظاهر بالاحتجاج :

ـ يبدو أنك قد نسيت أنه ابن خالتى .

قالت له وقد تداركت خطأها :

ـ آسفة .. ولكنه ..

قاطعها قائلاً قبل أن تسترسل فى التعبير عن غضبها :

ـ لا أظن أنك قد عرفته جيدًا .. فلو أتيحت لك الفرصة لتعرفيه بالقدر الكافى .. لما قلت عنه ذلك .

قالت له وهى تدير محرك سيارتها من جديد :

ـ لقد عرفته بالقدر الذى يجعلنى أحرص على ألا ألتقى به مرة أخرى .

سألها قائلا وهى تتحرك بالسيارة :

ـ لكنك لم تخبرينى عما إذا كنت قد وافقت على أن نكون صديقين أم لا ؟

قالت له وهى تلوح له بيدها من نافذة السيارة :

ـ أعتقد أننا نستطيع أن نكون كذلك .

ناداها قائلاً :

ـ إذن متى سنلتقى مرة أخرى ؟

صاحت :

ـ ربما بعد أسبوع أو عشرة أيام .. إذا ما عدت إلى هنا مع ابن خالتك .

صاح قائلاً وقد تردد صوته فى أرجاء المكان الفسيح :

ـ وكيف يمكننى العثور عليك ؟

صاحت بدورها :

ـ ستعرف كيف تعثر على لو أردت .. فالمكان هنا ليس مزدحمًا .

راقبها وهى تبتعد قائلاً لنفسه :

ـ نعم .. سأعثر عليك .. وألتقى بك مرة أخرى أينما كنت .. ومهما كانت العقبات التى يمكن أن تحول بينى وبين ذلك.. فإعجابى بك لا حدود له ، لأنك طراز نادر ومختلف عن كل من عرفتهم من الفتيات من قبل .

* * *

٤ - صفقة زواج ..

وقفت الفتاة ذات الشعر الأصفر تتأمل نفسها فى المرآة بعد أن ارتدت ثوبها الجديد ، وقد بدت شديدة الإعجاب بنفسها ..

وما لبثت أن تنهدت من أعماق قلبها قائلة لنفسها :

- كل هذا الجمال ولم أحظ بالرجل الذى أستحقه بعد .. لقد تقدم أكثر من عشرة أشخاص للزواج منى حتى الآن .. لكن مع الأسف كلهم من تلك الفئة التى يطلق عليها اسم محدودى الدخل .. وليس من بينهم ثرى واحد يستحق أن أكون زوجة له .

إننى غير مستعدة للزواج إلا من رجل غنى ، يقدر هذا الجمال بما يستحقه ، أما هؤلاء الشباب الذين لا يملكون سوى قوت يومهم فهم لا يصلحون للزواج مطلقًا .

ربما أعجبت بأحدهم كما حدث بالنسبة لـ (مراد) .. لكننى لن أتزوج أبدًا من شخص فقير .

لقد كان (مراد) شابًا لطيفًا .. لكن عيبه الوحيد

أنه عاطفى أكثر من اللازم .. وقد أصر على أن نتزوج فعجل بنهاية علاقتنا التى لم تكن تتخطى حدود الإعجاب .

وتمددت فوق فراشها وهى ما زالت مستمرة فى التفكير قائلة لنفسها :

- لقد عانيت من الفقر ما يكفى لكى أكرهه كراهية مقيتة .. وعلىّ أن أتبع نصيحة أمى بألا أتزوج إلا ممن أستطيع أن أثق بأنه قادر على إبعاد شبح الفقر عنى إلى الأبد .

ونظرت إلى ساعتها وقد بدا وكأنها تذكرت شيئًا فقالت :

- ولكن ما الذى أخر أمى حتى الآن ؟ لقد أخبرتنى أنها ستكون فى البيت الساعة التاسعة مساء ، بعد أن تنتهى من لقائها مع هذا الرجل الذى ينوى الزواج منها .. فما الذى أخرها حتى الآن ؟

وقامت لتدير جهاز التسجيل حيث انبعثت منه نغمات لموسيقا راقصة .. فأخذت ترقص على أنغامها وهى تراقب نفسها من آن لآخر فى المرآة .. وما لبثت أن سمعت صوت المفتاح يدور فى الباب ،

حيث رأت أمها وهى تدلف إلى الداخل .. فأسرعت بإغلاق جهاز التسجيل وهى تقبل عليها .

وابتسمت أمها قائلة :

ـ لقد ظننت أننى سأجدك نائمة يا (نجوى) .

تعلقت الفتاة بذراع أمها قائلة :

ـ لم أكن لأستطيع النوم قبل عودتك .. ما الذى أخرك هكذا ؟

مدت الأم يدها أمام ابنتها لتريها سوارًا ذهبيًا يحيط بمعصمها قائلة :

ـ ما رأيك فى هذا ؟

حدقت الفتاة فى السوار الذهبى بإعجاب قائلة :

ـ إنه رائع يا أمى .. من أين حصلت عليه ؟

ابتسمت الأم قائلة :

ـ هذا هو ما أخرنى يا عزيزتى .. لقد أقنعت (همام) بأن يشتريه لى من أحد محلات المجوهرات ، قبل أن نتمم إجراءات الزواج .

قالت لها (نجوى) فى فضول :

ـ إذن فالأمر يعتبر منتهيًا .

قالت لها الأم :

ـ تقريبًا .. لدى بعض الشروط عرضتها عليه قبل أن أقبل الزواج منه بصفة نهائية .. لكنه ما زال مترددًا بشأنها .. وإن كنت واثقة بأنه سيقبلها كلها فى النهاية .. وسوف أتلقى رده الأخير غدًا بهذا الشأن .

ـ وما هى هذه الشروط التى حددتها له ؟

ـ شروط تكفى لتأمين مستقبلى ومستقبلك مع هذا الرجل .

ـ كيف ؟

قالت لها الأم وهى تسترخى فوق الأريكة :

ـ أظن أننى كنت موفقة فى خطتى .. فلم أدفعه إلى طلب يدى دفعًا وإنما هو الذى ألح فى ذلك .

قالت لها الفتاة فى فضول ، وهى تجلس إلى جوارها :

ـ فلتبدئى القصة من أولها .

قالت الأم وقد ارتسمت ابتسامة تنم عن الخبث على وجهها :

ـ أنت تعرفين أننى عريشية الأصل وكذلك (همام) .. كما أننا ننتمى لنفس القبيلة ، ووالدته هى ابنة عم لوالدى .

وقد أحبنى (همام) ونحن فى طور الشباب ، وسعى للزواج منى.. ولكنى فضلت عليه شخصًا آخر، خاصة وأنه كان يعمل فى القاهرة وهو والدك .. وكنت أحلم دائمًا بالذهاب إلى القاهرة والعيش بها .

ابتسمت الابنة قائلة :

ـ وهل هذا هو السبب الوحيد الذى جعلك تقترنين بأبى ؟

سرحت الأم بتفكيرها إلى الماضى قائلة :

ـ بل كانت ثلاثة أسباب هى التى جعلتنى أفضل أباك على (همام) من بينها الرغبة فى العيش فى القاهرة .. ولأننى شعرت ببعض الميل نحوه كما أنه أقنعنى بأنه ثرى ، ولديه من المال ما يمكن أن يجعلنى أعيش حياة رغدة بها كل أسباب الرفاهية .

ولكن تبين لى فيما بعد أنه لم يكن صادقًا فيما قاله .. وأن هذا الثراء الذى كان يدعيه .. كان ثراءً وهميًا .

ـ لكن أبى لم يكن فقيرًا .

ـ ولم يكن غنيًا أيضًا .. بل كان متوسط الحال .. ولولا الدروس الخصوصية التى كانت تدر عليه بعض

الدخل بجوار راتبه لكان الحال قد تدهور بنا . وقد تدهور بنا فى النهاية على أية حال ، بعد أن مرض أبوك ، ولم يعد يقوى على الاستمرار فى تقديم الدروس الخصوصية أو حتى الذهاب إلى مدرسته .

وحتى المبلغ البسيط الذى تمكنا من ادخاره بصعوبة ضاع على نفقات مرضه وعلاجه .. حتى وافته المنية ونحن فى هذه الحال البائسة التى أصبحنا عليها .

تنهدت (نجوى) قائلة :

ـ نعم .. لم أكن أتصور أننا سنمر بظروف كهذه .. لقد كنت أنقم على حياتنا المتوسطة هذه فى أثناء حياة أبى .. وكنت تعديننى دائمًا بحياة أفضل وأكثر رفاهية فى المستقبل .. لكن منذ أن توفى أبى والأمور تتدهور بنا إلى الأسوأ حتى صرت أتحسر على السنين الماضية .

قالت لها الأم بثقة :

ـ كلا .. لا أريد منك أن تنظرى إلى الوراء ، ولا تقنعى بحاضرك .. لا بد أن تتطلعى دائمًا إلى المستقبل وإلى ما هو أفضل .

قالت الابنة بيأس :

- لكن الأفضل لا يأتى دائمًا .

- لا بد أن يأتى ما دمت تصرين على تحقيقه والوصول إليه .. لقد وعدتك بحياة أكثر رفاهية وسوف أحقق وعدى .. لكن عليك ألا تقنعى بما أقدمه لك ، وأن تسعى وراء الأفضل ووراء تحقيقه بنفسك .. عليك أن تخلقى لنفسك فرصتك لكى تحظى بالحياة التى تتمنينها .

التمعت عينا الفتاة وهى تستمع إلى نصيحة أمها .. لكنها ما لبثت أن قالت لها :

- وهل استطعت أنت أن تنالى هذه الفرصة ؟ ثم كيف ستقدمين لى هذه الحياة المرفهة التى تتحدثين عنها ؟

- نعم .. لقد جاءتنى فرصتى الحقيقية وأنا فى السادسة والأربعين من عمرى عندما استطعت أن أثير اهتمام (همام) بى مرة أخرى ، وأحرك مشاعره القديمة نحوى .. لأدفعه للزواج منى مرة أخرى .

- وهل (همام) هذا غنى ؟

- نعم .. إن لديه ثروة كبيرة .. لديه مال ..

ومزرعة .. ومنزل كبير فى العريش .. ولديه أيضًا ثروة حيوانية من الأبقار والأغنام .. وأظن أن ثروته تتجاوز النصف مليون من الجنيهات .

- ما دام ثريًا هكذا .. فلماذا لم تتزوجيه منذ البداية ؟

- لم تكن ثروته قد تضاعفت على النحو الذى وصلت إليه الآن .. فقد أضاف ثروة زوجته المتوفاة إلى ثروته ، واستطاع أن يستثمرها بشكل جيد كما أنه كان مشهورًا بالبخل دائمًا .

قالت لها ابنتها منزعجة :

- البخل ! ولكن كيف سيمكنك أن تنالى شيئًا من رجل بخيل ؟

قالت الأم بخبث :

- بأن تجعليه يظن أنك امرأة ثرية .. وبأن تعزفى على أوتار عاطفته القديمة نحوك .. وهذا ما فعلته .

- ولكن البخل آفة يصعب التغلب عليها .

- وهذا ما جعلنى أضع شروطًا أضمن بها مستقبلى ومستقبلك معى قبل الموافقة على الزواج .

- وما هى هذه الشروط ؟

- أن يسجل نصف المزرعة بمحتوياتها باسمى وكذلك المنزل الذى سنقيم فيه .

قالت لها الابنة منزعجة :

- وهل سنقيم فى العريش ؟

- مؤقتًا .. ولكن أعدك أن نعود إلى القاهرة قريبًا .

- ولكنى لا أستطيع الإقامة فى العريش .

- وكذلك أنا .. ولكن لا بد من بعض التنازلات فى البداية حتى ننال ما نريده .

وأنا واثقة أننى سأستطيع أن أقنعه بالتخلى عن الحياة هناك .. والعودة معى إلى القاهرة .. لكننا سنعود أكثر ثراء .. لنسكن منزلا أرقى ، ونعيش حياة أفضل .

- وهل تظنين أنه سيوافق على التخلى عن المزرعة والمنزل لك ؟

قالت الأم بثقة .

- نعم .. سيوافق .

- لماذا ؟ لأنه يحبك ؟

- بالطبع .. فأنا حبه القديم .. والزوجة التى تمناها ولم يستطع أن ينالها ، وهذا له تأثير كبير على

الرجل لا تعرفينه أنت ، إن فكرة الحنين إلى الماضى ، وتحقيق الحلم الضائع لها تأثير قوى على المرء .. وقد عرفت كيف أستغله للتأثير على (همام) .

- لكنى أعرف أن الشخص البخيل لا يمكن أن يحب شيئًا أكثر من ماله .

- وأنا أيضًا أعرف هذا .. لذا أوحيت إليه .. ولكن بطريقة غير مباشرة أننى أحتفظ بمبلغ كبير من المال ورثته عن أبيك .. ويمكن أن أسهم به فى أحد مشروعاته المستقبلية .. وهذا ما جعله يزداد تعلقًا بى وإصرارًا على الزواج منى .

- وعندما يكتشف الحقيقة ؟

ضحكت الأم قائلة :

- سيكون عليه أن يرضى بالواقع .. وأن يخضع للحقيقة التى سأفرضها عليه .

- ولكن ربما سعى إلى الطلاق وقتها .

- عندها سيكون عليه أن يدفع مؤخر الصداق الكبير الذى فرضت عليه أن يكتبه فى عقد الزواج .

ونظرت الأم إلى ابنتها وقد لاحظت ملامح القلق وعدم الاقتناع التى ارتسمت على وجهها قائلة :

- اطمئنى يا بنيتى .. لقد أعددت للأمر عدته .. ولا تخشى على أمك ، فقد علمتنى الأيام والظروف الكثير .. وأنا أعرف كيف أتعامل مع شخص مثل (همام) ، وكيف استغل تأثيرى عليه من الناحية العاطفية والمادية .

قالت لها (نجوى) دون أن تتخلص من قلقها :

- ألا يوجد حل أفضل من هذه الزيجة ؟

لفت الأم ذراعها حول كتفى ابنتها قائلة :

- إنه أفضل ما يمكن الحصول عليه فى ظل الظروف السائدة التى نحياها الآن .. وبالنسبة لامرأة فى السادسة والأربعين من عمرها .

ربما لو كنت أصغر سنًا ومازلت محتفظة بذلك الجمال الباهر الذى خلب عقول شباب العريش .. والذى أورثتك إياه .. وبقى لى البعض منه ؛ لاخترت لى رجلا أفضل وأكثر ثراء .

لكن ليس أمامى الآن بعد أن تدهورت أحوالنا المادية إلى هذا الحد سوى ذلك المحب القديم .. ونحن بحاجة إليه للحصول على حياة كريمة بدلاً من ذلك الفقر الذى يحاصرنا .

وعندما أتمكن من بيع المزرعة والمنزل ، وإقناعه بسحب ماله الذى يكنزه فى البنك ، والمشاركة معى فى مشروع مناسب فى القاهرة . سيختلف الأمر بالنسبة لنا .. وسنحيا حياة مختلفة .

وسوف تفتح هذه الحياة أمامك مجالاً لعلاقات اجتماعية جديدة ، وزوجًا أكثر ثراء ، يناسب فتاة رائعة الجمال مثلك .

ضحكت (نجوى) وهى تنظر إلى أمها بدهشة قائلة :

- ياه ! يا ماما .. إن لك تفكيرًا بعيد المدى .. وطموحًا لا حدود له .

قالت لها الأم بإصرار :

- وأنت أيضًا يجب أن يكون لك نفس التفكير ، ونفس الطموح حتى تستطيعى أن تنالى حظك من الحياة .

ارتكزت (نجوى) بذقنها إلى كتف أمها قائلة :

- ولكن .. ألا تشعرين ببعض الحب تجاه هذا الرجل ؟

قالت لها أمها سريعًا :

ـ إننى لا أومن بالحب كثيرًا .. لكن إذا كنت قد أحسست ببعض الحب تجاه شخص ما .. فهذا الشخص كان هو أبوك .. والحب الحقيقى الذى عرفته هو حبى لك .

احتضنتها (نجوى) قائلة :

ـ وأنا أيضا أحبك كثيرًا يا أمى .. وأحب طريقة تفكيرك .





٥ ـ الغائبة ..

قضى الأمر وتم الزواج بعد مفاوضات طويلة حول شروط الأم ، انتهت بموافقة الشيخ (همام) على أن يتنازل لها عن حق التصرف فى نصف المزرعة والمنزل فقط ، محتفظا لنفسه بحق المنفعة .

وكان (همام) يمنى نفسه بالتأثير على الأم للتراجع عن هذا التنازل مستقبلا ، بل والحصول على المال الذى ورثته عن زوجها .. مستغلا سلطاته كزوج عليها .

فضلا عن أنه كان يحمل لها قدرًا كبيرًا من الحب بالفعل .. حب تفتح عليه صباه .. ولم يعرفه فى حياته تجاه أى شخص آخر فيما بعد .

حتى بالنسبة لزوجة أخيه .. التى اضطر للاقتران بها بعد وفاة أخيه طمعًا فى مالها .. لكنه لم يحمل لها قدرًا من الحب مطلقًا برغم أنها أحبته ، وأخلصت له بكل ذرة فى كيانها ، ولم تبخل عليه بكل ما كانت تمتلكه من مال .

قالت له زوجته متبرمة وهى تجلس بجواره فى تلك السيارة الخاصة التى استأجرها لتنقلها هى وابنتها معه إلى منزله فى العريش :

ـ إن السفر بهذه السيارة مرهق للغاية .. ألم يكن من الأفضل أن تختار لنا سيارة مكيفة وأكثر راحة لهذا السفر الطويل ؟

قال لها وهو يجاهد لإخفاء ضيقه .

ـ سيارة مكيفة .. أتعرفين كم كان سيكلفنا ذلك ؟

نظرت إليه بكبرياء قائلة :

ـ وماذا فى ذلك ؟ إننى زوجة تذهب إلى منزل زوجها لأول مرة بعد الزواج .. ألا أستحق أن أسافر معه فى سيارة مريحة ؟

قال لها وهو مستمر فى إخفاء ضيقه :

ـ تستحقين بالطبع .. لذا فقد وافقت على استئجار سيارة خاصة .. كما طلبت لتنقلنا إلى العريش .

قالت له بنفس النبرة المتعالية :

ـ لقد ظننت أنك ستأتى لنا بسيارة مريحة ومكيفة أفضل من هذه .

ثم هل كنت تريد أن أذهب إلى منزلك لأول مرة ومعى ابنتى فى سيارة ركاب عادية ؟

كانت الرحلة مرهقة بالنسبة لـ (نجوى) .. لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام وهى ترى أمها تبدأ فى فرض نفوذها وشخصيتها القوية المؤثرة على زوجها منذ البداية .. وحتى قبل أن تصل إلى منزله .. وقبل أن ينقضى على زواجهما ثلاثة أيام .

استمرت الأم فى تأنيب زوجها قائلة :

ـ كنت أظن أنك ستنقلنا إلى العريش بالطائرة لتوفر لنا قدرًا أكبر من الراحة .

نظر إليها باستنكار قائلاً :

ـ طائرة ؟

قالت له متجاهلة استنكاره :

ـ نعم .. طائرة ركاب عادية .. إن الطائرات تذهب إلى العريش . أليس كذلك ؟

قال لها وقد أقلقه ميلها إلى كل هذا القدر من الإسراف :

ـ ماذا تظنين ؟

قالت له زوجته ببرود :

- أنت الشيخ (همام) .. كما يدعونك فى العريش وتنتسب إلى عائلة معروفة هناك .. لها اسمها وقدرها .. وأنت أيضًا لك اسمك ومكانتك بين العرايشية .

لا تنس أن بيننا صلة قرابة وإن كانت بعيدة .. لكن ما أعرفه عنك ما زال صحيحًا أم أنى مخطئة ؟

قال لا وفى صوته نبرة غاضبة .

- لكننى لست غنيًا .

أمسكت زوجته بذراعه وقد غيرت لهجتها الحادة لتقول له بدلال :

- إن ما لديك يكفى يا عزيزى .

هدأ غضبه قليلاً ولان صوته وهو يقول لها :

- كنت أتمنى أن أكون أفضل مما أنا عليه الآن .. ولكنى أبذل ما بوسعى لإرضائك .

قالت له وهى تستخدم معه دهاءها الأنثوى :

- أعرف ذلك يا زوجى الحبيب .. ثق بأن الأمور ستختلف بعد زواجنا .. ويمكنك أن تعتمد على فى جعل الحياة بالنسبة لنا تتحول إلى الأفضل .

ابتسم لها وقد ورد إلى خاطره فى هذه اللحظة المال الذى ورثته عن زوجها .. فقال :

- إننى واثق من ذلك بالفعل .

ونظر إلى ابنة زوجته قائلاً :

- وأنت يا (نجوى) .. إننى لم أرك تنطقين بكلمة واحدة طوال الطريق .

تنهدت (نجوى) التى كانت متخوفة من المكان والمجتمع الجديد الذى تتأهب للذهاب إليه والحياة فيه .

- ماذا أقول يا عمى ؟

- ألست سعيدة بسفرك معنا ؟

قالت له وهى تمط شفتيها :

- فى الحقيقة .. لا ..

سألها قائلا وهو يحاول التودد إليها :

- لماذا ؟

- إننى لم أتصور نفسى أقيم فى مكان بعيدًا عن القاهرة .. خاصة إذا كان مكانًا نائيًا كهذا .

قال لها وهو يرسم على وجهه ابتسامة مفتعلة :

- من قال إن العريش مكان ناء ؛ إنها مدينة كبيرة .. وبها مناطق عمرانية وسياحية رائعة تفوق مناطق كثيرة فى القاهرة .

قالت له زوجته وهى تحاول أن تشعره بأنها قامت بتضحية هى وابنتها :

- نعم .. ولكن .. ليس المكان الذى تقيم فيه يا شيخ (همام) .. فهو يبعد كثيرًا عن تلك الأماكن التى تتحدث عنها .. فلا تنس أننى من العريش أيضًا وأعرف المكان الذى تقيم فيه .

التفت إليها قائلاً :

- لكنك لم تأت إلى هذا المكان قط يا عزيزتى .

هزت كتفيها بكبرياء قائلة :

- نعم .. فأسرتى تقيم فى المدينة نفسها .. ولكنى أعرف المكان وسمعت عنه من أبى وخالى .

قال لها وهو يحاول أن يضفى بعض المزايا على المكان الذى يقيم فيه :

- على أية حال .. إنه مكان يتميز بالهدوء والسكينة بعيدًا عن صخب المدينة وزحام القاهرة الخانق .

قالت (نجوى) وهى مستمرة فى التعبير عن استيائها :

- ولكنى أكره الهدوء والسكينة .. ولم أعتد هذا النوع من الحياة .

قال لها محاولاً أن ينهى الأمر :

- لابد أنك ستعتادينها مع مرور الوقت .

- يجب أن تعرف أننى بذلت جهدًا كبيرًا من أجل إقناع ابنتى بالحضور إلى العريش .. فهى فتاة اجتماعية بطبيعتها .. وقد اعتادت أن تذهب إلى النوادى وأن ترتاد الأماكن الراقية .

- اطمئنى إنها لن تشعر بالوحدة فى هذا المكان .. فسوف تلتقى بفتاة فى مثل عمرها ويمكنها أن تصادقها وتعتمد عليها فى تعرّف المكان بصورة جيدة وزيارة المدينة من آن لآخر .. وكذلك الشاطئ والمناطق السياحية المطلة عليه .

قالت (نجوى) محتجة :

- إننى لن أصادق فتاة بدوية جاهلة .

- لكن (ليلى) ليست فتاة بدوية .. وليست جاهلة .. فقد تربت فى مدينة العريش مع أمها .. وقد حصلت على شهادة الثانوية العامة .. ولولا ظروف احتياجى إليها بعد وفاة أمها وظروف مرض أختها .. لكانت قد أكملت دراستها الجامعية .

سألته زوجته قائلة :

ـ أليست (ليلى) هذه هى ابنة زوجتك المتوفاة ؟

ـ بلى .. وهى ابنة أخى أيضًا .

قالت له زوجته :

ـ وهل ستستمر فى الإقامة معنا فى هذا المنزل ؟

قال لها مرتبكًا :

ـ نعم .. إننى لا أستطيع أن أتخلى عنها .. إنها ابنة أخى .. وهى الآن فتاة يتيمة لا عائل لها سواى .. كما أنها ترعى ابنتى الصغيرة .

قالت له وهى لا تخفى تبرمها :

ـ لكن ألا ترى أن المكان سيكون مزدحمًا على هذا النحو ؟

قال لها سريعًا :

ـ بالعكس .. إن المنزل واسع ويمكن أن يتحمل ثلاث عائلات .. كما أن الفتاة تقوم بكل الأعباء المنزلية المطلوبة ، بالإضافة إلى مساعدتى فى أعمال المزرعة .

سوف ترين أنها برغم رقة بنيانها تستطيع أن تقوم بعمل ثلاثة رجال مجتمعين .

ويمكنك الاعتماد عليها ، فسوف تكون عونا كبيرًا لك ، وتحمل عنك الكثير من الأعباء .

هزت رأسها قائلة :

ـ حسن .. مادمت ترى ذلك .

وسألته فجأة قائلة :

ـ لكن .. ألم تقل لى إنك تمتلك سيارة ؟

أجابها :

ـ بلى ..

ـ إذن .. لماذا لم تستخدمها فى هذه الرحلة .. مادمت تهوى التوفير ؟ إننى لم أرك تأتى بها إلى القاهرة مرة واحدة .

ابتسم قائلاً :

ـ هل كنت تريدين أن أستخدم سيارتى فى نقلك إلى هنا ؟ إنك متفائلة للغاية .

نظرت إليه بتساؤل قائلة :

ـ ماذا تعنى بذلك ؟

ـ إن سيارتى تناضل من أجل السير .. فهى قد تجاوزت عمرها الافتراضى .. ولولا عناية ابنة أخى بها لكانت قد تحولت إلى قطعة من الحديد الخردة منذ زمن طويل ..

والسيارة التى نستقلها الآن والتى تحتجين على ركوبها هى (رولزرويس) بالنسبة لها .

قالت له وهى تمط شفتيها تعبيرًا عن المزيد من الاستياء :

ـ هكذا ؟!

ونظر إلى الطريق أمامه قائلاً :

ـ سنصل إلى المزرعة بعد عشر دقائق .

أخرجت الزوجة مرآة صغيرة من حقيبتها لتسوى شعرها ، وتتأكد من أن (الماكياج) الذى وضعته على وجهها لم يفسده السفر بعد ، قائلة لزوجها :

ـ كان يتعين علينا أن نذهب إلى المدينة أولاً ، لإطلاع الأهل والأقارب على أمر هذه الزيجة .. فلا بد أنهم سيغضبون لعدم إطلاعهم على هذا الأمر ومفاجأتهم به .

ـ سنفعل .. ولكن فيما بعد .. إننى أريد أن تستريحى أنت وابنتك أولاً من عناء السفر .. وبعدها سندبر الأمر .

وسرعان ما لاحت المزرعة أمامهما حيث أشار إليها (همام) قائلاً :

ـ ها هى ذى المزرعة .. لقد وصلنا .

صاحت (نجوى) بانزعاج قائلة :

ـ هل هذا هو المكان الذى سنعيش فيه ؟

قالت الأم وهى لا تخفى ضيقها :

ـ إن مظهرها لا يوحى بالخير .

قال لهما (همام) محاولاً استمالتهما للمكان :

ـ انتظرا حتى ترياها من الداخل .

قالت زوجته وهى تغادر السيارة بعد أن فتح لها بابها :

ـ لا أظن أن الداخل سيكون أفضل من الخارج كثيرًا .

وانتظرتا واقفتين ، وهما تنظران إلى المنزل والمزرعة الصغيرة المحيطة به ، نظرة تنم عن الازدراء فى حين وقف (همام) يجادل سائق السيارة فى الأجر المتفق عليه ..

وكاد الأمر أن يتطور بينهما إلى مشاجرة .. لكن زوجته صاحت به قائلة بانفعال :

ـ ألن ننتهى من هذا الأمر ؟ أعطه ما يريد .. فلو كنت مكانه ما جئت إلى هذا المكان مطلقًا أيًا كان الأجر الذى تدفعه لى .

نظر إليها (همام) بغيظ مكظوم .. ثم إلى السائق قائلاً وهو ينقده أجره .

ـ من حسن حظك أننى مشغول مع زوجتى وابنتها الآن .. ولولا ذلك ..

تناول السائق أجره قائلاً :

ـ إن زوجتك معها حق .. ما كان يتعين على أن أوافق على المجىء إلى هذا المكان مطلقًا .. ولا أدرى كيف وافقت هى على ذلك ؟

وانصرف عائدًا بسيارته ، وقد وقف (همام) يراقبه والشرر يتطاير من عينيه .

ثم استدار إلى زوجته ليناديها باسمها قائلاً بانفعال:

ـ اسمعى يا (فادية) إننى لا أحب أن تعاملينى بهذه الطريقة ، خاصة أمام الأغراب .. ولا أحب هذا الأسلوب فى الحديث .

قالت له زوجته محتجة :

ـ آه .. إذن فهذه هى البداية .. تنتظر حتى تأتى بنا إلى هذا المكان البعيد وتصبح فى ظل منزلك لتكشف لنا عن وجه آخر .. وتبدأ فى إصدار الأوامر والنواهى ..

اسمعنى أنت .. لا تظن أنك تستطيع أن تتحكم فىَّ وفى ابنتى وتعاملنا معاملة الجوارى ..

إننى أستطيع أن أرحل أنا وابنتى فى أى وقت ، ونترك لك هذه الحظيرة التى تدعى أنها مزرعة .

ثم لا تنس أنه ما زال لى من الأهل والعشيرة هنا الكثيرون ، ممن يستطيعون أن يتصدوا لك ويردعوك وقت اللزوم .

قال لها سريعًا وقد خفت نبرته المنفعلة :

ـ إننى لم أطلب منك سوى أن تتحدثى معى بأسلوب لائق .. خاصة أمام الآخرين .

قالت له وهى تهز ساقها بعصبية :

ـ حسن .. هل سنظل واقفين هكذا .

وبرغم إعجاب الابنة بالأسلوب الذى كانت تفرض به أمها شخصيتها على زوجها منذ البداية ، إلا أنها كانت مرهقة إلى الحد الذى تتمنى فيه أن تنتهى هذه المناقشة بأى وسيلة ، لكى تدخل إلى هذا المنزل وتلقى بنفسها فوق أى فراش تلقاه فى طريقها .

قال لهما (همام) وهو يصطحبهما إلى الداخل .

ـ تفضلا .

دفع (همام) البوابة الخارجية للمنزل ، فانفتحت ودخلت زوجته وابنتها ، حيث وجدتا أمامهما فناء

واسعًا فيه بعض الحفر وبقايا الطعام المخصصة للأغنام والمواشى .. وقد تناثرت فى أرجائها .. فكاد أن يغمى عليهما ..

ولم تكن حال الإبنة بأحسن من حال أمها .

ولم ير (همام) ما طرأ على وجه زوجته من تجهم .. أو لعله رآه وتعمد تجاهله .

وتقدمهم قائلاً :

- لابد أن (ليلى) قد أعدت لنا طعامًا شهيًا .. إن هذه الفتاة ماهرة فى إعداد الطعام ..

لم يكن فى غرفة الجلوس سوى منضدة عتيقة .. وبضعة مقاعد مختلفة الأحجام والأشكال ، وبساط قد ذهبت الأيام بلونه فأصبح باهتًا يقارب لون الأرض التى يمتد فوقها .

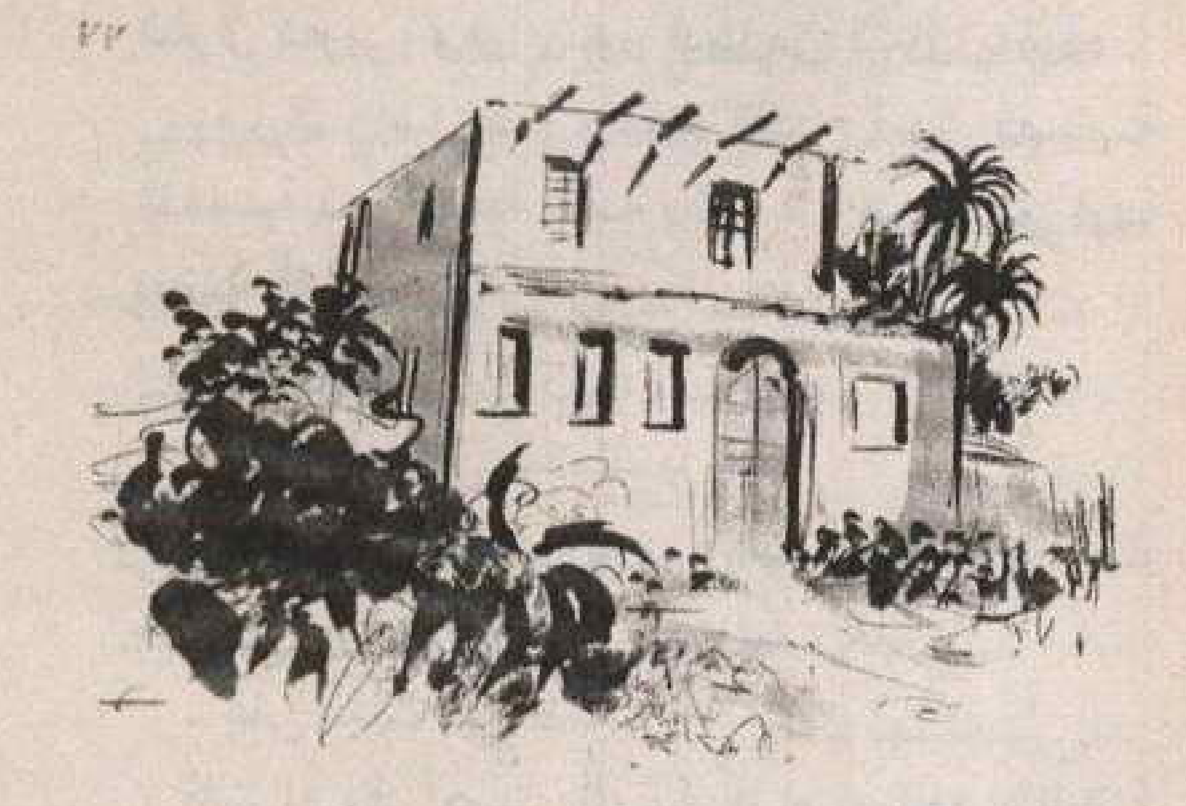
حدقت الأم وابنتها فيما يريانه وقد امتقع وجهاهما .

بينما أخذ (همام) ينادى ابنة أخيه دون أن يتلقى إجابة على ندائه ، فانفعل ثائرًا وهو يقول :

- أين ذهبت هذه الفتاة اللعينة ؟ لماذا يتعين على أن أصبح دائمًا هكذا كلما أردت العثور عليها ؟

لكن بعد جولة سريعة فى أرجاء المنزل والمزرعة تبين له أنها غادرت المكان .. ولم يتمكن من أن يعثر لها على أثر .

* * *



٦ ـ اللقاء الثانى ..

عادت (ليلى) إلى المنزل وهى تدفع أمامها بالعربة الصغيرة التى تحمل أختها . وما إن دلفت إلى الداخل حتى وجدت عمها جالسًا فى إحدى حجرات المنزل فوق الوسائد التى اصطفت بجوار بعضها على الطراز العربى، وهو يتناول قدحًا من الشاى بمفرده .

وما إن رآها حتى وضع القدح فوق الصينية النحاسية الموضوعة أمامه بعنف ، وهو يحدق فيها بغضب قائلاً :

ـ أين كنت حتى الآن ؟

ـ حمدًا لله على سلامتك يا عمى .

لكنه تجاهل ترحيبها به ، وهب واقفًا وقد أمسك بذراعها فى قسوة قائلا :

ـ إننى أسألك أين كنت ؟

قالت له وقد أحست بألم من جراء أصابعه الغليظة التى كانت تضغط على ذراعها .

ـ لقد ذهبت (زاهية) إلى الطبيب .

قال لها بغلظة :

ـ كنت لدى الطبيب كل هذا الوقت ؟

إن طبيب الوحدة الصحية لا يبعد عن هنا أكثر من كيلو متر واحد .

قالت له وهى تحاول أن تجذب ذراعها من يده :

ـ إننى لم أذهب بها إلى طبيب الوحدة الصحية .. بل إلى طبيب فى المدينة .

قال لها دون أن يتخلى عن ذراعها :

ـ وما الداعى إلى الذهاب بها إلى طبيب فى المدينة ؟

ـ لأن المرض اشتد عليها ، وقد نصحنى طبيب الوحدة بأن أذهب بها إلى طبيب متخصص فى المدينة .

وأخيرًا تخلى عن ذراعها وقد تركت أصابعه آثارها فيه ، حيث أخذت الفتاة تتحسسه وهى تحاول التغلب على إحساسها بالألم .

بينما علا صوته قائلاً :

ـ ليكن فى علمك أننى لن أدفع قرشًا واحدًا أكثر مما دفعته ثمنا لعلاجها .

ـ وأنا لم أطلب منك شيئًا .
ـ ولماذا لم تعدى طعامًا مناسبًا فى المنزل ؟
ـ لأننى لم أكن أعلم أنك قادم اليوم .
ـ كان أمرًا مخجلاً أن أحضر أنا وزوجتى وابنتها فلا نجد أى طعام جاهز بعد عناء السفر .
ـ يمكننى أن أعد طعامًا مناسبًا فى الحال .
قال لها وقد تغلبت عليه طبيعة البخل فيه .
ـ لا داعى لذلك .. فقد تناولنا بعض البيض والجبن والعسل .
وأظن أن هذا يكفى بالنسبة لليوم .
وألقى نظرة سريعة على ابنته قائلاً :
ـ وكيف حال الطفلة ؟
قالت له بسخرية :
ـ كنت أظن أنك لن تسأل هذا السؤال أبدًا .
قال لها بخشونة :
ـ كفاك تطاولاً وأجيبى عن سؤالى .
ـ لقد تحسنت حالتها إلى حد ما .. لكنها بحاجة للمزيد من العلاج .. كما أن الطبيب أخبرنى أنها بحاجة لفحص طبى شامل .

ـ ما دامت قد تحسنت فلا داعى لكل هذا .. إن الأطباء دائمًا يبالغون فى طلباتهم ليبرروا النقود التى يحصلون عليها .
قالت له (ليلى) محتجة :
ـ لكن ما لم يكرر العلاج بالنسبة للطفلة ، وتلق العناية الطبية المناسبة فإن حالتها ستسوء من جديد.
قال لها وهو يعبر عن ضيقه من الاسترسال فى هذا الحديث :
ـ دعك من هذا .. وأخبرينى .. ماذا حدث فى غيابى ؟
ـ ليس هناك جديد .. سوى أن هناك شخصًا اشترى مساحة كبيرة من الأرض فى هذه المنطقة من الحكومة ، ليقيم عليها مشروعًا سياحيًا ضخمًا .
نظر إليها بدهشة قائلاً :
ـ مشروع سياحى هنا ؟
قالت (ليلى) وهى تتعمد إغاظته :
ـ نعم .. ومساحة الأرض التى اشتراها تتضمن المكان الذى نقيم فيه الآن ، أى المنزل والمزرعة .
جحظت عيناه وهو ينظر إليها قائلاً :

ـ هل تقصدين أن الحكومة وافقت له على شراء أرضى دون علمى ؟ أى تخريف هذا الذى تقولينه ؟

ـ هذا ما حدث .. هل نسيت أن هذه الأرض ليست ملكك ، وأنك استوليت عليها بوضع اليد دون أن يكون لك أى حق فيها ؟

قال لها وقد هزته المفاجأة :

ـ لكنها أصبحت أرضى .. فقد أقمت هنا سنوات طويلة .. بنيت منزلاً وأنشأت مزرعة ، وزرعت أرضًا لم تكن فيها نبتة واحدة .

أقمت كل هذا بعرقى وجهدى وكفاحى .. فهل ينتظرون منى أن أسلم كل هذا لغريب بسهولة .

كلا .. لا يمكن أن أسمح لأحد أيًا كان أن يأخذ منى منزلى ومزرعتى . لا بد أن هذه مجرد شائعات .

نعم .. لقد سمعنا من قبل وفى سنوات سابقة عن بيع الحكومة لهذه المناطق ، دون أن يكون هذا حقيقيًا ودون أن يتحقق شىء من ذلك .

ـ لكن الأمر جدى هذه المرة .. لقد اشترى شخص.. هذه الأرض وقام بتسجيلها.. وهو لن ينتظر طويلاً .. لأنه ينوى البدء فى تنفيذ مشروعه فوقها .

لذا فعمًا قليل سوف يطالبك أنت وغيرك بإخلاء هذا المكان للشروع فى تنفيذ هذا المشروع .

ولن يمكنك أن تعارضه .. لأنه فى هذه الحالة سيلجأ إلى الشرطة وإلى القوة الجبرية لإجبارك على مغادرته .

ولذا فمن الأفضل أن ترتب نفسك على هذا ، وأن تعد العدة لنقل كل ما يمكنك نقله من هنا .. والبحث عن مكان آخر للإقامة فيه .

حدجها بنظرة فاحصة قائلاً :

ـ وكيف أمكنك أن تعرفى كل هذا ؟

ـ لأننى التقيت الرجل الذى اشترى الأرض ، وعلمت منه بذلك .

قال لها (همام) وهو يرفض التصديق :

ـ لابد أنه مدَّع أفاق .

وما لبث أن استطرد قائلاً بحدة :

ـ ثم كيف تسمحين لنفسك بمقابلة أغراب ، والتحدث معهم فى مثل هذه الأمور ؟

ـ لقد حدث هذا مصادفة .. هل تذكر السيارة المسرعة التى كادت أن تصدم (عنتر) .. قبل سفرك إلى القاهرة ؟

ـ هل تقصدين تلك السيارة الفارهة التى كانت متجهة إلى الاستراحة القديمة ؟

ـ نعم .. إن صاحبها هو الذى اشترى هذه الأرض.. وهو ينوى أن يحول هذه الاستراحة إلى فيلا محاطة بحديقة صغيرة لتكون مسكنًا له ، لكى يشرف بنفسه على تنفيذ المشروع .

صاح بها قائلاً :

ـ أيتها الفتاة اللعينة .. هل تتعمدين إغاظتى ؟

هزت كتفيها قائلة :

ـ إننى أحاول فقط أن أعلمك بالأمر لتكون مستعدًا للتغييرات التى ستحدث هنا .

دفعها بقوة خارج الحجرة .. قائلاً :

ـ اخرجى من هنا .. واعملى على تنظيف هذا المنزل حتى تجده زوجتى وابنتها فى شكل لائق ، بعد أن يقوما من النوم .

وما إن غادرت الفتاة الحجرة حتى أخذ يردد لنفسه فى قلق وقد انتابته الهواجس ..

ـ إنها كارثة ! لو تمكن هذا الرجل من تنفيذ تهديده بطردى من المكان فستكون كارثة كبرى بالنسبة لى .

غادرت (ليلى) الحجرة وهى تحمل أختها الصغيرة على كتفها ، لتضعها فى فراشها بحجرتها وقد انخرطت الطفلة فى بكاء حار .

لكن أختها عملت على تهدئتها وهى تردد لها بصوت هامس :

ـ لا تنزعجى يا طفلتى الجميلة .. فقد اعتدنا هذه القسوة من أبيك .

لكن الطفلة استمرت فى البكاء .. فعادت لتقول لها :

ـ هل تريدين أن أغنى لك أغنية لكى تتوقفى عن البكاء ؟

حسن .. سأغنى لك .

وأخذت (ليلى) تشدو بكلمات أغنية ناعمة ترددها على مسمع الطفلة ، بصوت هامس رقيق النبرات سرعان ما استكانت له وبدأت تتوقف عن البكاء تدريجيًا .

وفجأة فتح باب الحجرة لترى (ليلى) أمامها امرأة ممشوقة القامة ملفوفة القوام ، تبدو على ملامحها مسحة من جمال لم تختف معالمه بعد .. وصرامة تنبئ عن شخصية قوية مسيطرة .

حدقت كل منهما فى الأخرى بفضول .. وقد سألتها المرأة قائلة :

ـ أنت (ليلى) ؟

أجابتها (ليلى) سريعًا :

ـ نعم .

ثم أردفت :

ـ وأنت زوجة عمى .. أليس كذلك ؟

قالت لها المرأة بغطرسة :

ـ اسمى (فادية) .. وعليك أن تنادينى بـ (فيفى هانم) من الآن .

ـ حمدًا للّه على سلامتك يا ست (فيفى) .. اقصد (فيفى هانم) ..

سألتها المرأة وهى تحاول أن تفرض عليها شخصيتها منذ البداية :

ـ لماذا تبكى هذه الطفلة ؟

قالت (ليلى) وهى تدثر أختها بالغطاء :

ـ لقد كانت منزعجة قليلاً .. لكنها هدأت الآن .

قالت لها دون أن تبدى أى شعور ودى نحوها :

ـ وأنت أين كنت ؟ لماذا لم نجدك عندما أتينا إلى المنزل ؟

قالت (ليلى) وهى لا تخفى عدم شعورها بالود تجاه المرأة أيضًا :

ـ لقد ذهبت بأختى الصغيرة إلى الطبيب .

قالت المرأة وهى تتفرس فى وجه الفتاة :

ـ لقد سمعت أنك تجيدين الأعمال المنزلية بجانب بعض الأعمال الأخرى .

ـ نعم .

أشارت المرأة إلى الباب قائلة :

ـ حسن .. تقدمينى إلى الخارج ودعينا نذهب إلى المطبخ لنرى ذلك ..

قبلت (ليلى) جبين أختها الصغيرة التى نامت .. ثم امتثلت لما أمرتها به زوجة عمها ، وقد أحست بأنها ستلقى المزيد من المتاعب من الآن بعد حضور هذه المرأة إلى المنزل .

لكن المرأة استوقفتها مرة أخرى قائلة :

ـ انتظرى .. توجد هنا حظيرة للطيور .. أليس كذلك ؟

قالت لها (ليلى) متبرمة :

ـ نعم .

قالت زوجة عمها :

ـ إذن دعينا نذهب إليها لنحضر بعض الطيور ونذبحها .. فقد كان شيئًا مؤسفًا للغاية أن تكون الوجبة الأولى لعروس مثلى هى وابنتها فى منزلها جبنة بيضاء وبضع بيضات .

غدًا ستطلعينى على كل شىء فى هذه المزرعة .. أريد أن أشرف على كل شىء بنفسى .

هزت (ليلى) كتفيها بلا مبالاة قائلة :

ـ كما تشائين .

وذهبت المرأة معها إلى الحظيرة وهى تصيح بغضب محدثة نفسها :

ـ كنت أتوقع أن أرى استقبالاً حافلاً فى دار كبيرة وأنيقة تليق بزوجة مثلى .. لكن آمالى قد خابت منذ الوهلة الأولى التى وطأت فيها أقدامى هذا المكان .. على أية حال ستكون هناك تغييرات كبيرة فى هذا المكان مستقبلاً .

وكتمت (ليلى) ضحكتها .. فهذه المرأة المتغطرسة

لا تعرف أن هناك تغيرات كثيرة ستحدث فى هذا المكان بالفعل ليس عن طريقها هى .. ولكن عن طريق صاحب الأرض الجديد .

ومن بين هذه التغيرات إخلاء المنزل والمزرعة من سكانهما وربما إزالتهما تمامًا .

قضت (ليلى) الأسبوعين التاليين فى أعمال مضاعفة بالمنزل والمزرعة ، بعد أن أضيفت لأوامر عمها ونواهيه سلطة زوجته التى كانت تعاملها معاملة الخدم .

لكن ما كان يهون من الأمر على نفس (ليلى) ميلها الطبيعى للعمل ، واعتيادها على مشقة الحياة على نحو جعلها لا تلقى صعوبة كبيرة فى تحمل تلك الأعباء الإضافية التى تحتاج إلى خمس فتيات للقيام بها .

كان كل شىء يهون بالنسبة لها فى سبيل بقائها إلى جوار أختها الصغيرة وإشرافها على رعايتها بنفسها .

الشىء الوحيد الذى كان يؤلمها هو تلك العجرفة التى كانت تعاملها بها زوجة عمها وابنتها .. ونظرتهما إليها نظرة السيدة إلى خادمتها .

برغم أن أمها أسهمت بمالها وجهدها فى كل جزء من هذا المكان الذى أصبحت تعامل فيه معاملة الخدم.

ولم تكن تستطيع أن تلجأ لعمها لتشكو إليه مما تلاقيه من هذه السيدة وابنتها .. فقد كان أكثر قسوة منهما .

بل إنه كان يرى بعينيه كل ما تلاقيه من عنت دون أن يحرك ساكنًا .. بل بدا راضيًا تمامًا عن ذلك .

وفى نهاية الأسبوعين كلفتها زوجة عمها بالذهاب إلى المدينة لإحضار بعض الأشياء التى يحتاج إليها المنزل .

فاستقلت سيارة عمها بعد أن أخذت أختها الصغيرة معها ، حيث كانت ترفض دائمًا أن تتركها بمفردها فى المنزل .. واصطحبت معها كلبها .

ثم ذهبت بها إلى منزل سيدة تعرفها حيث تركتها لديها ، وقد وعدت أن تعنى بها حتى تعود .

وذهبت إلى مدينة العريش لشراء الأشياء المطلوبة .

وبينما هى منهمكة فى عملية الشراء سمعت صوتًا يناديها قائلاً :

- ها نحن أولاء قد التقينا أخيرًا !

التفتت نحو مصدر الصوت لترى (طارق) واقفًا أمامها وهو يبتسم لها ، فأحست بارتباك شديد حتى إن الأشياء التى اشترتها سقطت من يديها وتبعثرت على الأرض ..

* * *

٧- علمتنى الحياة ..

ساعدها على جمع الأشياء التى تبعثرت منها قائلاً:

- لم أكن أعرف أن ظهورى المفاجئ سيخيفك هكذا .

قالت وهى تتناول المشتريات منه :

- إننى لم أخف .. لكننى لم أتوقع أن أراك هنا .

ابتسم لها قائلاً :

- منذ الآن سترينني كثيرًا هنا .. إن (عادل) اشترى الأرض التى حدثتك عنها ، وسوف يبدأ قريبًا فى اتخاذ الإجراءات اللازمة بشأن تنفيذ مشروعه .. وأنا بصفتى ابن خالته ومدير أعماله .. سوف أتولى الإشراف على عملية التنفيذ .

قالت له وهى تستعد لركوب سيارتها :

- حسن .. هل تسمح لى ؟

سألها قائلاً :

- إلى أين ؟

- سأعود إلى المنزل .

ـ والاتفاق الذى بيننا .

سألته بدهشة :

ـ أى اتفاق ؟

ـ ألم نتفق على أن نكـون صديقين ؟ وأن أصحبك معى فى رحلة بالقارب البخارى .

قالت له مترددة وقد أغرتها الفكرة :

ـ لكنى مشغولة الآن .. فبعد أن أنتهى من شراء الأشياء المطلوبة للمنزل سوف أذهب لإحضار أختى من عند السيدة التى تركتها لديها .. ثم أعود إلى المزرعة لأقوم بأداء ما هو مطلوب منى من أعمال .

قال لها مشجعًا :

ـ لكنى لن أعطلك كثيرًا .. إننى أستطيع أن أجوب بك كل شاطئ العريش فى أقل من نصف ساعة .

ـ إذن أنتهى من شراء الأشياء المطلوبة منى ثم أذهب معك .

ـ لا مانع .. سأساعدك فى شرائها .

قالت له معارضة .

ـ كلا .. لا يصح أن نسير معًا هكذا .

نظر إليها مستغربًا وهو يقول :

ـ كنت أظن أنك أكثر جرأة من ذلك .

ـ إننا هنا فى العريش ولسنا فى القاهرة .. والناس هنا برغم التغيير الذى طرأ عليهم فى السنوات الأخيرة ما زالوا يحتفظون بتقاليدهم البدوية وأصولهم القديمة .

ـ حسن .. سأنتظرك أمام الفندق الذى أنزل فيه إلى أن تفرغى من شراء احتياجاتك ثم تلحقى بى هناك .. هل تعرفينه ؟

هزت رأسها قائلة :

ـ نعم .. لقد ذكرت لى اسمه فى المرة السابقة .

ـ إذن .. فقد اتفقنا .

هزت رأسها علامة الموافقة ، بينما ابتسم ملوحًا لها قبل أن ينصرف فى سيارته .

لم تكن (ليلى) أجمل فتاة رآها (طارق) .. لكنها كانت من نوع جديد لم ير مثله من قبل .. نوع مختلف عن كل من عرفهن فى حياته .

كان قد أعجب بجمالها الفطرى الذى ليس به تكلف ولا تصنع .. كما أعجب بما أبدته من جرأة وهى تسأله عن كلبها .. كما أعجب بمهارتها فى قيادة

السيارة دون مبالاة بالخطر .. برغم أن هذا يتناقض مع مظهرها .

وقد قضى طوال الفترة الماضية منذ أن التقى بها لا يفكر إلا فيها .. وينتظر اليوم الذى سيلتقى بها فيه بلهفة وشوق .

وبقدر ما كانت سعادته عندما أتاحت له الظروف أن يلتقى بها مرة أخرى اليوم .. بقدر ما بدأ يحس بخيبة الأمل عندما مر الوقت دون أن تأتى كما وعدته .

ظل جالسًا فى سيارته وهو يتطلع إلى الطريق أمامه فى قلق منتظرًا أن يراها لكنها لم تأت .

وما لبث أن غادر السيارة ليذهب إلى موظف الاستقبال داخل الفندق ، ويسأله قائلاً :

ـ ألم يسأل أحد عنى ؟

قال له موظف الاستقبال :

ـ نعم .. هل تنتظر شخصًا ما يا سيدى ؟

لكنه لم يجبه بل سارع بمغادرة الفندق عائدًا إلى سيارته .

لكن قبل أن يصل إليها .. لمحها قادمة فى سيارتها

وقد أحدث محركها ضجة عالية ، فتهلل وجهه فرحًا واندفع نحوها قائلاً :

ـ كنت أخشى ألا تأتى .. فقد تأخرت علىّ كثيرًا .

قالت له وهى تبذل جهدًا فى إغلاق باب السيارة :

ـ لقد تعطلت السيارة كالعادة .. واضطررت أن أقضى بعض الوقت فى إصلاحها .

وفى تلك اللحظة اقترب أحد رجال الفندق وهو ينظر إلى سيارتها بازدراء قائلاً :

ـ من فضلك يا آنسة .. أبعدى هذه السيارة القديمة عن هنا .

لكن (طارق) قال له :

ـ لا عليك .. إنها معى .. وعليك أن تعنى بهذه السيارة ريثما نعود .. وجذبها من يدها قائلاً :

ـ هيا بنا .

سألته قائلة :

ـ إلى أين ؟

ـ لنستقل القارب البخارى كما وعدتك .

أدار محرك القارب مطلقًا العنان له ، وقد أخذ يشق صفحة المياه بينما الفتاة جالسة بجواره وهى

سعيدة بما تراه .. وبهذا العالم الجديد الذى وجدت نفسها فيه ، بعد أن كانت تكتفى بمشاهدته عن بُعد من قبل .

نظر إليها قائلاً :

ـ هل أنت خائفة ؟

هزت كتفيها وهى تبتسم له قائلة :

ـ من ماذا ؟

ـ من اهتزاز القارب فوق صفحة المياه .

ـ بالعكس .. إننى سعيدة بذلك .

ـ وماذا لو زدت من سرعة القارب ؟

ـ سأكون أسعد .

ـ هل أنت واثقة من ذلك ؟

قالت له بثقة :

ـ يمكنك أن تجرب .

ـ حسن .. تشبثى بمقعدك جيدًا لأننى أنوى أن أزيد من سرعة القارب .

وانطلق القارب بسرعة قصوى فوق صفحة المياه .. حتى بدا وكأنه يطير فوق الأمواج ..

بينما كانت الفتاة فرحة كطفلة صغيرة بذلك النوع من الإثارة التى لم تعتدها .. وبتطاير رذاذ الماء حولها مداعبًا شعرها وذراعيها ووجنتيها ..

وأخيرًا أبطأ من سرعة القارب ليسير بسرعة عادية منتظمة وهو يلتفت إلى (ليلى) قائلاً :

ـ إنك فتاة قوية الأعصاب .

نظرت إليه قائلة بإعجاب :

ـ وأنت ماهر فى القيادة .

ابتسم لها قائلاً :

ـ ليس بقدر مهارتك فى قيادة سيارتك .

قالت له وقد تعلقت بابتسامته الجذابة :

ـ هل يمكنك إعادتى إلى الشاطئ الآن ؟

سوّى بيده خصلات شعرها التى تطايرت على جبينها قائلاً :

ـ بهذه السرعة ؟ ما زال أمامنا متسع من الوقت .

ـ لكنى تأخرت .

ـ هل مللت من وجودك معى ؟

ـ أبدًا .. ولكنى أخبرتك بالظروف التى تحتم على أن أعود إلى المنزل دون تأخير .

تأملها بإعجاب شديد قائلاً :

ـ لكنى أشعر بسعادة كبيرة لوجودى معك .

ـ أنا أيضًا سعيدة .. لكنى قلقة .

ـ إذن دعى القلق .. وعيشى معى هذه اللحظات السعيدة دون التفكير فى أى شىء آخر .

ـ لا أستطيع .. فلدى مسئوليات تجاه أختى الصغيرة .. وتجاه الآخرين .

ـ (ليلى) .. أريد أن تحدثينى عن نفسك .

ـ ما الذى تريد أن تعرفه عنى ؟

ـ كل شىء ؟

ـ فيما بعد .. والآن من فضلك أعدنى إلى الشاطئ .

قال لها مازحًا :

ـ وإذا لم أفعل ؟

ـ إذن سأقوده بنفسى .

ـ لكنك تجهلين قيادة هذا النوع من الزوارق .

ـ إذا أردت أن أعرف كيف أقوده فسوف أفعل .

قال لها وهو يزداد إعجابًا بثقتها بنفسها :

ـ لكن هذا يحتاج إلى تدريب .

ـ لقد تعودت دائمًا أن أدرب نفسى على فعل ما أريده .

قال لها وهو مستمر فى مزاحه معها :

ـ لكنى أستطيع أن أمنعك .

ـ فى هذه الحالة .. سأقفز إلى الماء وأعود سابحة إلى الشاطئ .

نظر إليها بدهشة قائلاً :

ـ هل تجيدين السباحة ؟

ـ لقد كنت أتحين الفرصة دائمًا للذهاب إلى البحر فى ساعات مبكرة من النهار لأسبح مع بعض صديقاتى .. وقد كنت أفوقهن جميعًا فى السباحة .

ـ ما الذى لا تعرفينه إذن ؟

ـ أظن أننى قد تعلمت من الحياة الكثير .. فعندما تجد نفسك وحيدًا . ستضطر دائمًا لتعلم الاعتماد على نفسك دون أن تسعى إلى مساعدة الآخرين .

وأنا فقدت أبى وأمى فى سن مبكرة .. فاضطررت أن أعتمد دائمًا على نفسى لعمل كل ما أحتاج إليه .. وأظن أن هذا هو الجانب الحسن فى اليتم المبكر .

حدق فى وجهها قائلاً :

ـ كم عمرك ؟

ـ عشرون عامًا .

ـ ومع ذلك فإنك تتكلمين بخبرة وحكمة امرأة تخطت الستين من عمرها .

وما لبث أن أردف قائلاً :

ـ ولكن هل تعلمين شيئًا عن الحب ؟

نظرت إليه للحظات وقد فاجأها سؤاله .. ثم ما لبثت أن قالت له :

ـ إن الحب الوحيد الذى عرفته فى حياتى هو حبى لأمى وحبى لأختى .

ـ إننى لا أتحدث عن هذا النوع من الحب .. ولكن أتحدث عن نوع آخر من الحب .. إننى ..

غادرت مقعدها وهى تبتعد عنه لتقف على حافة القارب .

فنظر إليها قائلاً :

ـ ماذا تفعلين ؟

أجابته قائلة :

ـ سأقفز إلى الماء .

اندفع نحوها ليمسك بها قائلاً :

ـ أيتها المجنونة .. هل ستفعلين ذلك حقًا ؟

قالت له وهى تحاول أن تنزع ذراعها من يديه :

ـ نعم .. مادمت مصرًا على أن تؤخرنى ولا تريد أن تعيدنى إلى الشاطئ .

ابتسم لها قائلاً :

ـ حسن .. حسن .. سأعيدك إلى الشاطئ .. ولكن لا داعى لهذا التهور .

وأدار محرك القارب مرة أخرى عائدًا بها إلى الشاطئ ، وقد ازداد تعلقًا وإعجابًا بها .

* * *



٨ ـ قسوة .. وحنان ..

عادت (ليلى) إلى المنزل حاملة أختها الصغيرة وهى شبه حالمة ..

كانت سعيدة للغاية .. فهذه إحدى المرات القليلة التى عرفت فيها ذلك النوع من المرح الصافى النابع من القلب .

لقد استمتعت بيومها وبرفقتها لذلك الشاب الوسيم ذى الابتسامة الخلابة ..

كما ركبت ذلك الزورق البخارى الذى كان يطير فوق صفحة المياه ، والذى لم تتخيل أن تضع أقدامها فيه يومًا من الأيام .. وانتعشت برذاذ الماء الذى لامس وجنتيها وذراعيها .

أخذ كلبها ينبح ويقفز وهو يتقدمها تارة ويدور حولها تارة أخرى فضحكت قائلة له :

ـ هل سعدت أنت أيضًا بمرافقتى فى هذه الرحلة الرائعة يا (عنتر) ؟

لا بد أن تكون قد سعدت بذلك .. فكل شىء يبعث على البهجة والمرح هذا اليوم .

ونظرت إلى أختها التى جذبتها من شعرها قائلة :

ـ أعرف أنك تحاولين أن تعبرى عن احتجاجك لأننى لم أصحبك معى فى هذه الرحلة .. لكن أعدك عندما تتحسن صحتك أن أصحبك معى فى رحلة مماثلة ..

وشردت قليلاً وهى تردف قائلة :

ـ وربما كان معنا (طارق) أيضًا .

وفجأة تنبهت من شرودها .. وأيقظها من سعادتها صوت عمها الأجش الذى استقبلها بوجه مكفهر قائلاً :

ـ ما الذى أخرك كل هذا الوقت ؟

قالت له متلعثمة وقد أربكها ظهوره المفاجئ ، وصوته العالى :

ـ كنت .. كنت أحضر الاحتياجات المطلوبة للمنزل والمزرعة .

قال لها وقد ازداد صوته خشونة .

ـ كل هذا الوقت ؟ لقد غادرت المنزل فى ساعة

مبكرة من الصباح ونحن الآن فى الرابعة مساء .. فأين كنت طوال هذا الوقت ؟

ـ لقد تعطلت السيارة فى الطريق .

قال لها وهو يقبض على ذراعها :

ـ تعطلت السيارة أم أنك كنت برفقة هذا الشاب الغريب ؟

قالت له وقد ازداد ارتباكها وخوفها :

ـ أى شاب ؟

ضغط على ذراعها قائلاً :

ـ الذى وقف يتحدث إليك فى السوق .. أتظنين أن هناك شيئًا يمكن إخفاؤه هنا .. لقد رآك بعضهم وأخبرنى بالأمر .

ـ وماذا فى ذلك ؟ إنه شاب مهذب .. وكان يسأل عن بعض الأمور التى تتعلق بالأرض التى سيشتريها ابن خالته كما أخبرتك من قبل .

قال لها بخشونة :

ـ إذن فهو أحد هؤلاء الذين يريدون أن يستولوا على أرضنا .. كيف سمحت لنفسك بالوقوف معه والتحدث إليه ؟

وفى تلك اللحظة ظهرت زوجة عمها وبرفقتها ابنتها لتتحدث إليه قائلة :

ـ يبدو أنك متساهل مع هذه الفتاة أكثر من اللازم .

قال لها مؤمنًا على كلامها :

ـ نعم .. يبدو أننى تساهلت معها أكثر مما يجب .

قالت له زوجته وهى تحرضه عليها :

ـ إنك تكتفى بالصياح فى وجهها .. ولا شىء أكثر من ذلك .. فى حين أننا فى الماضى عند ما كانت الفتاة منا تتجاسر على التحدث إلى شاب غريب كانت تلقى عقابًا قاسيًا من أهلها .

قال لها وهو يدفع بالفتاة أمامه إلى الفناء المحيط بالمنزل :

ـ سأجعلها تنال العقاب الذى تستحقه .. أحضرى لى السوط !

ابتسمت (نجوى) وهى تنظر إلى (ليلى) بتشفٍ :

ـ سأحضره أنا لك يا عمى .

قالت له زوجته وهى تفكر فى الأعباء المنزلية التى يتعين على الفتاة أن تقوم بها اليوم :

ـ لا داعى لذلك الآن .. يكفى أن تحذرها اليوم .. ثم افعل ما تشاء بها فيما بعد .

لكنه أصر على عقابها بقسوة قائلاً :
- كلا .. إننى مصر على أن تنال عقابها .
قالت له الزوجة :
- ولكنى سأكلفها ببعض الأعمال اليوم .. ولا أظن أنها ستقوى على القيام بها لو أنك جلدتها بالسوط .
قال لها وقد ازداد إصرارًا .. كما لو كان يهدف من وراء ذلك إلى إثبات سطوته أمام زوجته :
- أيًا كان الأمر .. لن يعفيها هذا من العقاب .
وكانت (نجوى) قد سارعت بإحضار السوط لتقدمه إلى زوج أمها قائلة :
- ها هو ذا السوط يا عمى .
أطلقت الطفلة الصغيرة التى كانت لا تزال محمولة على صدر أختها صوتها بالبكاء والصراخ ، من أثر صياح أبيها ودفعه لأختها بقوة كادت معها أن تهوى إلى الأرض ..
بينما قال عمها :
- أبعدى هذه الطفلة عن صدرك .. هيا وإلا جلدتها معك .
وبرغم قسوة الجلد بالسوط الذى جربت آلامه من

قبل .. إلا أن (ليلى) لم تبك متوسلة .. ولم تظهر خوفًا .
بل نظرت إليه بشموخ وإباء .. ثم أحضرت كومة من القش لتضع فوقها الطفلة .. قائلة له بتحدٍ :
- أنا مستعدة .
أغاظته منها هذه الصلابة ونظرة التحدى فى عينيها .. فدفعها أمامه نحو شجرة النخيل التى تتوسط الفناء المحيط بالمنزل ..
بينما وقفت الأم وابنتها ترقبان ذلك بجوار باب المنزل .
قالت الأم وقد اعتراها القلق :
- ما كان يتعين على أن أحرضه على عقابها إلى هذا الحد .
بينما ظلت ابنتها محتفظة بابتسامة التشفى ، وهى تنظر إلى (ليلى) قائلة :
- إنها تستحق ذلك .
قالت الأم دون أن تخفى قلقها :
- أيًا كان الأمر فإن مثل هذا العقاب فيه شىء من التجاوز .. ثم إن هذا سيضطرنى للقيام بأعمال المنزل بدلا منها .

وأخذ (همام) يقيد ابنة أخيه إلى شجرة النخيل ، تأهبًا لجلدها بالسوط ، حينما أقبلت سيارة كبيرة فارهة نحو المنزل .. وقد لمح سائقها من بعيد ما يحدث .

وما لبث أن غادر صاحب السيارة مقعده مسرعًا بعد إيقافها ، وهو يدفع البوابة الخارجية للمنزل قائلاً :

ـ ماذا تفعل يا رجل ؟

تحول إليه (همام) قائلاً بخشونته المعتادة وهو ممسك بالسوط :

ـ وما شأنك بذلك ؟ ما الذى تفعله أنت فى منزلى؟ وكيف تسمح لنفسك باقتحام المكان هكذا ؟

قال له (عادل) بنبرة عنيفة :

ـ أنا صاحب هذا المكان الذى تقف عليه .. ولا يمكن أن أقف ساكنًا وأنا أراك تعامل هذه الفتاة المسكينة بتلك القسوة والوحشية .

ولعل (همام) لم يستوعب ما قاله (عادل) جيدًا لأنه هم بأن يهاجمه ويرفع سوطه عليه .. لكنه تدارك الأمر فى اللحظة الأخيرة .. وخفض يده وهو ينظر إليه بدهشة قائلاً :

ـ صاحب المكان ؟ ما هذا الذى تقوله ؟

قال له (عادل) بثبات :

ـ أظن أنه قد وصلتك أنباء شرائى لهذه الأرض والأراضى المجاورة منذ أسبوعين تقريبًا .. خاصة أنه قد تم إرسال إخطار لك ولغيرك ممن يسكنون فى هذه المنطقة دون وجه حق .

قال له (همام) محتدًا :

ـ لكن هذه أرضى ومزرعتى وذلك منزلى .. ولن أسمح ..

قاطعه (عادل) بصلابة قائلاً :

ـ هذه أرض استوليت عليها بغير وجه حق .. والمزرعة والمنزل اللذان تتحدث عنهما لم يكن لك الحق فى إنشائهما فى هذا المكان .. ولكنى مستعد لشرائهما منك برغم أننى لن أستفيد منها شيئًا .. وبرغم أننى يمكننى أن أطالبك بإزالتهما أو إزالتهما بنفسى .

قال (همام) مزمجرًا :

ـ إن الموت أهون لدى من التخلى عن هذا المكان .

- هذه ليست مشكلتى .. ولن يجدى تهديدك معى شيئا .

إننى سأمنحك .. وأمنح الآخرين فرصة لمدة أسبوعين فقط لترتيب أمورهم ، والتخلى عن الأماكن التى استولوا عليها بغير وجه حق .. بعدها سأتخذ الإجراءات القانونية اللازمة لاسترداد هذه الأماكن التى أصبحت مملوكة لى .

وقد جئت بنفسى لأبلغك وأبلغ الآخرين بذلك .. وأظن أنه بعد أن توليت هذا الأمر بنفسى ، وبعد الإخطارات التى سبق إرسالها ، والمهلة التى أمنحها لكم لا يمكن لأحد أن يلومنى بعد ذلك فى أى إجراء أتخذه .

كان (عادل) يبدو صارمًا واثقًا من نفسه على نحو تراجع معه (همام) عن الاستمرار فى تحديه وعناده .

وبدا نادمًا على ما أظهره من عدم الاحترام لمحدثه .. فوقف ينظر إليه لبرهة دون أن يجد ما يقوله وقد اتسعت عيناه وانفرج فمه .

بينما قال له (عادل) :

- والآن .. هل تسمح فى حل قيود هذه الفتاة وإلقاء هذا السوط بعيدًا ؟

تحشرج صوت (همام) .. وسعل قليلاً تعبيرًا عن حرجه أمام زوجته والفتاتين من هذه اللهجة الآمرة التى يحدثه بها (عادل) .

وحاول أن يظهر بعض الصلابة فى رده عليه قائلاً :

- إذا كنت تمتلك بعض الحق فى منازعتى فى أرضى ومزرعتى فلا أظن أن لك أى حق فى التدخل فى أمورى العائلية .. إن لنا عاداتنا وتقاليدنا هنا .. وهذه الفتاة قد أخطأت على نحو يستوجب عقابها .

- ليس لك أى حق فى إنزال عقاب قاس كهذا على فتاة مسكينة لا حول لها ولا قوة .. إن الجلد بالسوط عقاب وحشى قد عفا عليه الزمن .. ولا يمكن لإنسانيتى أن تسمح لى بأن أقف موقف المتفرج وأنا أرى مشهدًا فظيعًا كهذا .

- إذن يتعين عليك أن ترحل .. ويجب أن تعرف أن ابن خالتك له دخل فى إنزال هذا العقاب بالفتاة .. فقد تجرأ على محادثة ابنة أخى ومصاحبتها .

قال (عادل) بصلابة :

ـ لن أتحرك من مكانى قبل أن تتراجع عن إنزال هذا العقاب بالفتاة ، وإذا كان ابن خالتى قد أخطأ فى مراعاة التقاليد هنا .. فإننى مستعد لتقديم أى ترضية .

وكانت الزوجة وابنتها قد اقتربتا من المكان واستمعتا للحوار الذى دار بين (عادل) و (همام) وكانت صدمة قاسية للزوجة أن تعرف أن هذه المزرعة والمنزل اللذين ارتضت أن تحيا فيهما هى وابنتها على مضض لم يكونا ملكًا حقيقيًا لزوجها .. ولم يكن له أى حق فى البيع أو التصرف أو التنازل عنهما .. وإنما هى أرض استولى عليها بوضع اليد وأصبحت ملكًا خالصًا لشخص آخر .

لذا فقد انهارت آمالها فى لحظة .. لكنها كانت قوية الأعصاب دائمًا .. ولا تنهار سريعًا أمام الصدمات .. كما كانت تجيد التفكير دائمًا فى تحويل خسائرها إلى أرباح .

لذا قررت معالجة الموقف سريعًا وتدارك الأمر .. فتقدمت إلى (عادل) وقالت له وهى تبدى أسفها :

ـ أرجو يا (عادل) بك أن تسامح زوجى .. فهو لم يقصد أن يكون فظًا معك ولا مع الفتاة على هذا النحو .. إنه يبدو حاد الطباع أحيانًا لكنه طيب القلب ويتراجع عن انفعاله سريعًا .

لقد حاولت أن أمنعه من عقاب الفتاة بهذه الطريقة القاسية .. لكنه أصر وصمم على ذلك .. وإن كنت واثقة أنه كان سيتراجع فى النهاية عن استخدام هذا السوط ، الذى أمسك به فى لحظة انفعال وتهور لإخافة الفتاة فقط .

ونظرت إلى زوجها قائلة وهى تحاول أن تنبهه إلى عاقبة تصرفه :

ـ أليس كذلك يا (همام) ؟

نظر (همام) إليها وهو لا يدرى بمَ يجيبها .. فقد بدا عاجزًا عن الرد أو التصرف .. وقد عادت عيناه تتسعان وفمه ينفرج على نحو أظهره فى مظهر البلاهة .

بينما قالت الأم لابنتها مستغلة سيطرتها على الموقف :

ـ هيا يا (نجوى) فكى قيود أختك (ليلى) واصحبيها إلى الداخل .

قالت الابنـة وقـد أدركت سريعًا ما ترمى إليه أمها .. إذ كانت أفكارهما كما لو كانت على موجة واحـدة :

ـ حاضر يا ماما .

ثم ألقت نظرة سريعة إلى (عادل) الذى استلفت نظره وجود فتاة لها كل هذا الجمال الفتان فى مكان كهذا .

وسـارعت (نجـوى) إلـى (ليـلى) قائلـة بصـوت تعمدت أن يكون مسموعًا :

ـ لا تجزعى يا (ليـلى) .. لقـد انتهى الأمـر .. كونى مطمئنة تمامًا .. سأحل قيودك .

ونظرت إليها (ليلى) فى دهشـة وهى تحل قيودها ، وقد استغربت من هـذا العطـف والـود المفاجئ الـذى أظهرته الأم وابنتها نحوها .. والذى لم تر مثله من قبل.

واتجه (عادل) نحوها ليطمئن عليها قائلاً :

ـ هل أنت بخير ؟

أخذت (ليلى) تحـرك معصمها الـذى كـان يؤلمها من التفاف القيود حوله قائلة :

ـ نعم .. أشكرك على ما فعلته من أجلى .

واتجهت (ليلى) لأختها كى تحملها من فوق كومة القش التى وضعتها على الأرض .

لكن (نجوى) سبقتها إلى ذلك .. وحملت الطفلة بدلا منها فى حنان ظاهر قائلة :

ـ دعينى أحملها عنك .

لكن (ليلى) أخذتها منها قائلة :

ـ لا داعـى لـذلـك .. فهـى لا تسـتريـح إلا علـى صدرى .

وضعت (نجوى) يدها على كتف (ليلى) وهى تصحبها إلى الداخل قائلة :

ـ إذن هيا بنا .. قبل أن تشتد الرياح وتسبب أى أذى للفتاة .

صحبتها (ليلى) إلى الداخل وقد عادت لتنظر إلى هذه الفتاة ، التى كانت تعاملها كما لو كـانت غريمتها أو شيئًا مقززًا يتعين عدم الاقتراب منـه إلا بحـرص ، بدهشـة شـديدة من هـذا العطف والود المفاجئ ..

أما (نجوى) فقد ألقت نظرة ثانية إلى (عـادل) قبل أن تنصرف ..

نفذت إلـى قلبـه كسـهم أحكم تصويبـه .. فأصـاب الهدف .

★ ★ ★

٩ - امرأة متسلطة ..

ابتسمت المرأة وهى ترى تصرف ابنتها السريع والمتجاوب تمامًا معها ، مما يدل على أنها ابنة أمها .. وأنها تفهمت الأسلوب الذى اضطرت أن تلجأ إليه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

كما أنه لم تغب عنها تلك النظرة فى عينى (عادل) مما يدل على اهتمامه وإعجابه السريع أيضًا بابنتها .

وما لبثت أن تحولت إلى زوجها وهى ترمقه بنظرة محذرة قائلة :

- ألا تعرف (عادل) بك بزوجتك ؟

نظر إليها (همام) برهة مترددًا ثم ما لبث أن اضطر لابتلاع غضبه وكظم غيظه قائلاً :

- اسمح لى أن أقدم لك زوجتى (فادية) هانم .. إنها من إحدى العائلات العريقة فى العريش .

حنى (عادل) رأسه قائلاً :

- تشرفنا يا هانم .

ثم قدم نفسه إليها قائلاً :

- (عادل فوزى) .. رجل أعمال .

ابتسمت له قائلة :

- لقد سمعت عنك بالطبع .. فأنت من رجال الأعمال المعروفين وصاحب مشروعات سياحية رائعة .

- أشكرك .

قالت له وهى تحاول أن تتملقه :

- فى الحقيقة إننى سعيدة لأن ألتقى بشخص مثلك هنا .

- فى الحقيقة .. أنا آسف لأن الظروف التى التقينا فيها لم تكن مناسبة خاصة بعد شرائى لهذه الأرض .. ولكن ..

قاطعته قائلة :

- لا يمكن لأحد أن يلومك .. فهذا حقك .

غضب (همام) لهذا القول من زوجته .. فقال لها مزمجرًا :

- ماذا تقولين ؟

لكنها قاطعته قائلة وهى ترمقه بتلك النظرة المحذرة :

ـ اسكت أنت !

ثم عادت لترسم تلك الابتسامة المتكلفة على وجهها وهى تتحدث إلى (عادل) قائلة :

ـ (عادل بك) .. هل سبق لك تناول أكلة بدوية من تلك التى يشتهر بها أبناء العريش ؟

اندهش لبرهة من سؤالها .. ثم ما لبث أن قال لها :

ـ فى الحقيقة .. لا .

أمسكت بذراع زوجها قائلة :

ـ إذن ما رأيك لو قبلت دعوتنا لك على العشاء هذه الليلة ؟

أحس (عادل) بالحرج وقد فوجئ بدعوتها .. فحاول الاعتذار قائلاً :

ـ فى الحقيقة إننى أشكرك على هذه الدعوة الكريمة .. ولكن لدى بعض الأعمال التى تشغلنى هذه الليلة .

قالت له بإصرار :

ـ إذن فلتتناول معنا الغداء غدًا .

ـ كنت أتمنى أن أقبل دعوتك .. ولكن ..

قالت له بخبث :

ـ يبدو أنك تستهين بنا إلى درجة أنك ترفض قبول دعوة من أشخاص بسطاء مثلنا .

ـ العفو يا هانم .. ولكن ..

قالت له سريعًا وبلهجة حاسمة :

ـ إذن ستأتى .. إنها ستكون فرصة مناسبة لكى نتحدث معًا ونصفى النفوس . بعد ما حدث اليوم .. كما أننى أحب أن تتذوق طعامًا ستعده لك ابنتى بنفسها .

سألها بفضول قائلاً :

ـ هل تلك الآنسة ذات الثوب الأخضر هى ابنتك ؟

أجابته قائلة بزهو :

ـ نعم .. لقد عاشت طوال عمرها فى القاهرة حيث ولدت هناك .. وهذه هى المرة الأولى التى تأتى فيها إلى العريش .. لكنى علمتها بعض الأكلات الشهية التى نشتهر بها هنا .. وقد فاقتنى فى إعدادها .

وأردفت قائلة وهى تشدد على حضوره :

ـ سننتظرك غدًا لتناول الغداء معنا .

ـ يشرفنى أن آتى .. ولكن أظن أنه يجب أن أتلقى الدعوة من صاحب المنزل .

ضغطت على ذراع زوجها ضغطة خفيفة لتدفعه إلى توجيه الدعوة للشاب قائلة :

ـ بالطبع.. إنه يرحب بك.. أليس كذلك يا (همام) ؟

عاد (همام) ليكظم غيظه قائلاً باستسلام :

ـ على الرحب والسعة يا (عادل) بك.. سيشرفنا حضورك .

ـ أشكرك يا شيخ (همام) .. إذن سأحضر غدًا فى الثانية ظهرًا .

ابتسمت المرأة قائلة :

ـ سنكون سعداء بتشريفك لنا يا (عادل بك) .

راقب (همام) الرجل حتى انصرف .. ثم تحول إلى زوجته بغضب قائلاً :

ـ ما هذا الذى فعلته ؟ كيف تسمحين لنفسك بالتدخل فى مناقشتى مع هذا الشاب ؟ وتدعينه إلى منزلى دون أن تأخذى موافقتى على ذلك ؟

قالت له بسخرية :

ـ منزلك ؟ أما زلت تدعوه منزلك ؟

ثم تغيرت نبرتها لتصبح أكثر حدة وانفعالاً قائلة :

ـ لقد خدعتنى .. قدمت لى هذه المزرعة وهذا المنزل على أنك تمتلكهما . بينما أنت لا تملك منهما شيئًا بل استوليت على هذا المكان بالغصب والاحتيال .

حاول أن يخيفها فلوح بالسوط فى يده قائلاً :

ـ إننى أمنعك ..

لكنها لم تخش تهديده .. بل استمرت فى حديثها الغاضب وقد علت نبرتها :

ـ قدمت لى مهرًا زائفًا لشىء لا تمتلكه .. ثم تريد أن تزيد الأمر سوءًا برعونتك وتصرفاتك الحمقاء .

قال لها ثائرًا :

ـ كيف تسمحين لنفسك أن تكلمينى هكذا ؟ والله لو لم تصمتى وتتراجعى عن هذا القول .. فسوف ..

قالت له بتحد :

ـ فسوف .. ماذا ؟ تجلدنى بالسوط .. هل تظن أنه يمكنك أن تفكر حتى فى شىء كهذا بالنسبة لسيدة مثلى .. أم أنك تظن أننى فتاة من الرعاة أو الخدم مثل ابنة أخيك يمكنك أن تجلدها وقتما تشاء ؟

لا تنس أننى أنتمى لعائلة كبيرة هنا .. ولو علم أحد منهم بأنك قد أسأت لى بطريقة ما فسوف تلقى منهم جزاءً شديدًا وتدفع ثمنًا غاليًا .. أم أنك لا تعرف ذلك يا شيخ (همام) ؟

أدرك (همام) أن ما تقوله صحيح .. وأنه لا طاقة له بتحدى هذه المرأة .. فقال لها :

ـ ولكن .. لا تنسىَ أنك أنت أيضًا خدعتنى .. فقد جعلتنى أظن أنك تحتفظين بمبلغ كبير ورثته عن زوجك واتضح أن هذا غير صحيح .

قالت له بغلظة :

ـ إننى لم أصرح لك مطلقًا بأننى أحتفظ بمبلغ من المال ورثته عن زوجى .. أنت الذى ظننت ذلك .. إذن فقد تزوجتنى من أجل هذا المال الذى ظننت أننى ورثته عن زوجى .. كان هدفك المال وليس حبك القديم لى كما أخبرتنى من قبل .

خدعتنى مرتين .. مرة بإيهامك لى أنك مازلت تحبنى وترغب فى الزواج منى لأنك مازلت تحتفظ لى بهذا الحب فى قلبك .

ومرة أخرى بتقديم شىء لا تمتلكه كمهر لى .

قال لها وقد لان صوته :

ـ لكننى أحبك بالفعل يا (فادية) .. وهذا هو ما دفعنى للزواج منك .

أدارت له ظهرها وجسدها يهتز بعصبية مفتعلة قائلة :

ـ لا أصدقك .. ولن أصدقك .

ـ وما العمل إذن ؟

ـ طلقنى !

ـ ماذا تقولين ؟

ـ لقد سمعتنى جيدًا .

ـ وإذا رفضت .

ـ سألجأ إلى أهلى هنا ليجبروك على ذلك .

فكر (همام) قليلاً .. ووجد أن هذا هو أنسب ما يمكن عمله الآن .. فالمرأة التى تزوجها متسلطة ويصعب عليه السيطرة عليها .. إنها تختلف كثيرًا عن الفتاة التى أحبها من قبل .. كما أنها ليست ثرية كما كان يظن .. وليس لديها ذلك المال الذى كان يظن أنه سيمكنه الاستيلاء عليه .. لذا قال لها موافقًا :

- حسن .. ما دمت تريدين ذلك .

- وستدفع لى مؤخر الصداق الذى تحدد فى وثيقة الزواج كاملا .

تصلبت ملامحه حينما سمع ذلك وقال لها فى ذعر :

- ماذا ؟ هل تريدين منى أن أدفع لك عشرة آلاف جنيه ؟

حدجته بنظرة صارمة قائلة :

- إنه حقى .. أليس كذلك ؟ ويمكننى أن أناله منك بالقوة والقانون .

إنك لم تدفع لى مهرًا حقيقيًا فى مقدم الصداق .. فهل تريد ألا تدفع لى المؤخر أيضًا ؟

عاد ليسترضيها بكلمات ناعمة ، وقد أدرك أنه لا يستطيع أن يتحمل مثل هذه الخسارة الكبيرة .. بالإضافة للأرض التى فقدها .. فقال لها :

- أتظنين أنه يمكننى الاستغناء عنك يا زوجتى الحبيبة ؟ لم أكن أتصور أن تعامليننى بهذه القسوة .. وأن تجعلى تلك الأمور المادية تفرق بيننا .. لقد أحببتك دائمًا يا (فادية) ولا يمكننى التفريط فيك .

قالت زوجته وهى تدير له ظهرها وقد عقدت ذراعيها أمام صدرها :

- لقد خدعتنى يا (همام) .. وكان كل ما تهدف إليه من وراء زواجك منى هو ذلك المال الذى ظننت أننى أمتلكه .. والذى أردت أن تعوض به خسارتك للمنزل والمزرعة .

قال لها وهو يحاول أن يسترضيها :

- أقسم لك إننى لم أعلم شيئًا عن بيع تلك الأرض .. لقد استوطنت هذا المكان منذ زمن طويل وأقمت عليه المزرعة والمنزل ظنًا منى أننى أستطيع أن أحتفظ به دون تدخل من المحافظة أو الدولة أو أى أحد ..

كما أننى أردت الزواج منك لأننى أحببتك لذاتك ، لا من أجل تلك النقود التى تتحدثين عنها .. من الواجب عليك أن تقفى معى فى محنتى التى أتعرض لها الآن بدلاً من أن تزيدى من قسوة الظروف التى أتعرض لها .

قالت له زوجته :

- وماذا أفعل غير ذلك ؟ إذا كنت تريد أن تحتفظ

بمزرعتك ومنزلك أو على الأقل تجد تعويضًا عنهما ، فيتعين عليك أن تكسب هذا الرجل وتستميله إلى صفك بدلاً من أن تعاديه .

ـ لكننى لا أميل لهذا الرجل .. فهو يبدو متغطرسًا ويظن أنه يستطيع شراء ما يريده بنقوده .

قالت له زوجته :

ـ لا يهم شعورك نحوه .. لكن عليك أن تكون واقعيًا .. إنه صاحب هذه الأرض الآن .. ويمكن أن يطردنا منها فى أى لحظة لو أراد . والقانون فى صفه .. لذا يتعين علينا أن نسترضيه ونكسبه بدلا من أن نعاديه .. وهذا ما أحاول أن أفعله حتى أجد وسيلة للخروج من هذا المأزق الذى أصبحنا فيه .

وقد حاولت أن أنبهك إلى ذلك .. ولكنك تريد أن تفسد كل شىء بحماقتك وتهورك .. وبدلاً من أن تشكرنى لأننى أحاول مساعدتك تلومنى على ذلك .

صمت برهة وقد أحس بأن كلامها يبدو منطقيًا .. وأنه من الممكن لو نجح فى كسب صداقة هذا الرجل أن ينقذ مزرعته ، أو على الأقل يلقى تعويضًا مناسبًا بدلاً من تلك الخسارة الفادحة التى تنتظره .

فتحول إليها قائلاً فى نبرة تنطوى على قدر من الاعتذار :

ـ معك حق .. آسف يا زوجتى العزيزة .. إن لديك عقلاً راجحًا يزن الأمور بميزان دقيق .. لذا فسوف أعتمد عليك فى مساعدتى على مواجهة هذه الأزمة .

قالت له وقد أيقنت أنها نجحت فى ترويضه :

ـ إذن دعنى أتصرف فى هذا الشأن .. وعليك أن تفعل ما أقوله لك ولا تحاول أن تعارضنى مرة أخرى .

قال لها مستسلمًا :

ـ حسن .. سأفعل ما تريدينه .

ـ حسن .. إذن عليك أن تكون مستعدًا لذبح أحد خرافك ، وإخراج بعض الأشياء الأخرى من مخزنك ، تأهبًا للوليمة التى سنقيمها لضيفنا غدًا .

نظر إليها بانزعاج قائلاً :

ـ ماذا ؟ خروف بأكمله ؟!

نهرته قائلة :

ـ هأنتذا قد بدأت تبدى اعتراضًا منذ البداية .. لقد وعدناه بأكلة بدوية من أكلات العريش .. وعلينا أن نظهر شيئًا من الكرم تجاه الرجل مادمنا نسعى

لصداقته .. لذا لا بد أن تتخلى عن شحك الكريه هذا الآن .

لم يجد بدًا من الموافقة بعد أن سلم لها زمام أمره .. فقال لها وهو يشعر بالحزن من أجل ذلك الخروف الذى سيتعين عليه أن يذبحه .

- فليكن .. مادمت ترين ذلك .

* * *



١٠ - زهرة برية ..

انتهى (عادل) من ارتداء ثيابه ، وقد بدا أكثر اهتمامًا بأناقته هذا اليوم حيث أخذ يتأمل مظهره أمام المرآة عدة مرات ، على نحو لم يعتد ابن خالته أن يراه عليه من قبل .

وما لبث أن غادر مقعده ليقترب منه ، وهو ينظر إليه باستغراب قائلًا :

- إننى لم أرك مهتمًا بمظهرك على هذا النحو من قبل .

نظر إليه (عادل) شذرًا قائلًا :

- وما الغريب فى ذلك ؟

قال له (طارق) مداعبًا :

- أظن أن كل هذا التأنق من أجل تلك الفتاة التى حدثتنى عنها بالأمس .

قال له (عادل) وقد أحس بشىء من الحرج :

- على المرء أن يعتنى بمظهره دائمًا وفى كل الحالات .

ـ لكنى عاهدتك دائمًا رجلاً عمليًا يعنيه عمله أكثر من مظهره .. ولا يبدى كل هذا الاهتمام بأناقته إلا إذا كان مدعوًا إلى إحدى الحفلات .

قال له (عادل) وهو يسوى شعره :

ـ لكنى مدعو بالفعل .. ألم أخبرك بأننى تلقيت دعوة لتناول الغداء مع الشيخ (همام) ؟

قال له (طارق) بخبث :

ـ وهل كل هذه الأناقة من أجل الشيخ (همام) أم من أجل ابنة زوجة الشيخ (همام) ؟

ابتسم (عادل) وقد عاودته صورة الفتاة وجمالها الذى يخطف الأبصار والقلوب .. إنها أجمل فتاة وقعت عليها عيناه .

وتحدث إلى صديقه وهو شبه حالم قائلاً :

ـ لو رأيتها يا (طارق) ما لمتنى .. فهى فتاة رائعة الجمال .

حدق (طارق) فى وجهه وقد اتسعت ابتسامته قائلاً :

ـ أرجو ألا تكون هذه مبالغة من جانبك .. فأنا أشهد لك بأنك رجل أعمال ناجح من الدرجة الأولى ..

أما فيما يتعلق بالنساء والأمور العاطفية فإننى أعرف أن خبرتك محدودة ..

ـ بل ربما كان تشبيهى أقل من الحقيقة .. أعرف أنه ليس لدى خبرة كافية مثلك بالنسبة للنساء .. وذلك لأننى قصرت اهتمامى منذ مراحل شبابى الأولى على ممارسة التجارة ، وإدارة الأعمال مع أبى وبعد وفاته ، وفى الوقت الذى كنت تضيع فيه أنت وقتك مع هذه وتلك كنت أنا أستثمر الأموال التى ورثتها عن أبى الاستثمار الأمثل .. وأنتهى من مشروع ناجح لأدخل فى مشروع آخر حتى وصلت إلى ما وصلت إليه .

لكنى مع ذلك عرفت نساء كثيرات على الأقل معرفة سطحية .. رأيت بعضهن واضطرتنى الظروف إلى التعامل مع البعض الآخر .. وقد رأيت الكثير من الجميلات أما هذه فشىء آخر .

إن جمالها فاتن .. جمال يحتويك .. لقد بدت لى زهرة متفتحة ذات جمال مبهر ، وشذى رائع فى هذا المكان القاحل .

ضحك (طارق) قائلاً :

ـ ما كل هذا ؟ هل حولتك هذه الفتاة من رجل أعمال إلى شاعر ؟

ـ لا يمكننى أن أنكر أننى أعجبت بها منذ الوهلة الأولى .. برغم .. برغم ..

سأله (طارق) قائلاً :

ـ برغم ماذا ؟

ـ برغم أننى لم أسترح لأمها .. إن هذه المرأة تبدو شديدة الدهاء والمكر .. كما أننى لاحظت أن لها شخصية مسيطرة تجعلها هى السيد الحقيقى فى هذا المكان .

ـ وما شأنك بأمها ؟ المهم الفتاة .

ـ أخشى أن تكون الفتاة قد ورثت شيئًا من طباع أمها .

وصمت برهة قبل أن يستطرد قائلاً :

ـ ثم .. هذا الرجل زوجها .. إنه شخص فظ الطباع متحجر القلب .. لقد كاد أن يجلد هذه الفتاة المسكينة بالسوط دون شفقة أو رحمة لولا تدخلي.. وتدخل زوجته .

تطلع إليه (طارق) بدهشة قائلاً :

ـ أى فتاة ؟

ـ ابنة أخيه .

ـ تقصد (ليلى) ؟

ـ نعم .. لقد رأيته وهو يقيدها إلى إحدى أشجار النخيل ويهم بجلدها بالسوط .. لولا تدخلى فى الوقت المناسب .

انفعل (طارق) قائلاً :

ـ هذا الوغد الشرير .. كيف يجسر على أن يفعل ذلك ؟ واللّه لو أننى كنت موجودًا فى هذه اللحظة للقنته درسًا لا ينساه .

نظر إليه (عادل) فى تساؤل قائلاً :

ـ بالمناسبة .. ماذا بينك وبين هذه الفتاة ؟

ـ لماذا تسأل هذا السؤال ؟

ـ لأننى علمت أنك قد أركبتها معك أحد زوارقى البخارية .. وحاولت أن تستعرض أمامها مهارتك فى قيادة الزورق على نحو كاد معه المحرك يحترق .

ـ أنا آسف يا (عادل) أعرف أنه كان يتعين علىَ أن أستأذنك قبل أن أستقل الزورق بصحبة الفتاة .. لكنها كانت متشوقة للقيام برحلة بحرية .. وقد طلبت منى ..

قاطعه (عادل) قائلاً :

ـ أنا لا أتحدث عن هذا .. لكنى أسأل عن صلتك بالفتاة .. لأنها كادت أن تلقى ذلك العقاب القاسى من عمها بسبب مرافقتك لها .

قال (طارق) وقد بدا عليه شىء من الارتباك :

ـ فى الحقيقة .. إننى .. إننى لا أنكر أننى معجب بها .. بل شديد الإعجاب بها .

حدجه (عادل) بنظرة فاحصة قائلاً :

ـ مثل إعجابك بالأخريات ؟

قال له (طارق) سريعًا :

ـ لا .. إن الأمر بالنسبة لها مختلف .. إنها شىء آخر غير اللاتى عرفتهن .

قال (عادل) وهو يبدو غير مقتنع :

ـ (طارق) .. هل تظن أننى أصدق ذلك ؟ أنا ابن خالتك وصديق عمرك .. لذا فأنا أعرفك جيدًا .

ـ أقسم لك إن الأمر مختلف هذه المرة .. إن هذه الفتاة شىء آخر غير كل من عرفتهن من الفتيات .. فكل ما فيها فطرى.. وصادق.. جمالها.. مشاعرها .. جرأتها .

ظل (عادل) يحدق فيه للحظة ، وهو مازال غير مقتنع بما قاله ابن خالته .. ثم ما لبث أن قال وهو يهز كتفيه :

ـ ربما .

ثم استطرد قائلا بعد برهة من التفكير :

ـ لكن .. هل يعنى هذا أنك تحبها ؟

اضطرب (طارق) للحظة وقد بدا أنه فوجئ بهذه الكلمة .. فقال له مرتبكًا :

ـ هه ؟ أحبها .. ربما .

ـ إن الطريقة التى تتحدث بها عنها .. وما قلته عن اختلافها عن الأخريات . يوحى بأن الأمر يتجاوز حدود الإعجاب .

ـ إننى لم ألتق بها سوى مرتين فقط .. ولا أعتقد أن هذا يكفى لكى أصدر حكمًا صحيحًا على مشاعرى نحوها .. لكنى لا أنكر أننى مفتون بها حتى هذه اللحظة .. تمامًا كما فتنت أنت بتلك الفتاة التى رأيتها فى المزرعة بالأمس .

ـ لقد فتننى منها جمالها فقط .. لكنى لم أعرف شيئًا عن جوهرها بعد .. طباعها .. أخلاقها ..

مشاعرها .. لو كانت كل هذه الأشياء بنفس درجة جمالها الظاهرى .. فأظن أننى يمكن أن أقع فى الحب هذه المرة .

ـ إن هذه الأشياء التى تتحدث عنها بحاجة لبعض الوقت لكى يمكن الحكم عليها .

ابتسم (عادل) قائلاً :

ـ هذه حيلة من يريد التهرب من ارتباط حقيقى وملزم .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى أننى أعرف أسلوبك القديم .. أعطنى بعض الوقت للتفكير ولكى يعرف كل منا الآخر لفترة من الوقت .. أمنح مشاعرنا مهلة حتى نتأكد من صدق عاطفتنا .. وهكذا حتى تقضى بعض الوقت مع إحدى تلك الفتيات اللاتى تسعى لإيقاعهن فى حبائلك .. ثم تنصرف عنها بعد أن تتسلى بها وتسأم منها فى النهاية .

أما بالنسبة لى فإننى رجل عملى .. لو تأكدت من أن الفتاة مناسبة لى وأيقنت من صدق مشاعرى نحوها وصدق مشاعرها نحوى .. فسوف أسعى للارتباط بها.

نظر إليه (طارق) بدهشة قائلاً :

ـ ماذا تعنى بذلك ؟ هل تريد أن تتزوجها ؟

ـ ولم لا ؟

قال له (طارق) وما زالت آثار الدهشة مرتسمة على وجهه :

ـ ولكن .. لكنك لست شخصاً عادياً .. يا (عادل) .. انظر لنفسك .. أنت رجل أعمال ناجح وله سمعته .. كما أنك من أصحاب الملايين .

ـ وما علاقة ذلك بزواجى من الفتاة ؟ ألا يتزوج رجال الأعمال وأصحاب الملايين ؟

ـ بلى .. ولكن .. لكنك لا تعرف شيئاً عن هذه الفتاة ولا عن الأسرة التى تنتمى إليها .

ـ وهذا ما سوف أسعى لمعرفته اليوم .

ـ إن عشرات الأسر الكبيرة تتمنى أن تناسبك .. ولا بد أنك رأيت الكثيرات كما قلت ممن هم فى مستواك الاجتماعى .. فهل يمكنك أن تترك كل هؤلاء من أجل فتاة التقيت بها بالأمس فى مزرعة بالصحراء ؟ فتاة لا بد أنها لا ترقى لمستواك المالى والاجتماعى ؟

ـ إننى لا أهتم كثيرًا لمسألة المستوى المالى والاجتماعى هذه .. إننى بحاجة لفتاة تحرك مشاعرى .. فتاة تهزنى من الأعماق .. وتذيب جليد أحاسيسى الباردة .

لقد عزفت عن الزواج كل هذه السنوات برغم أننى أقترب من الأربعين من العمر ، لأننى لم ألق هذه الفتاة .. وربما ظللت دون زواج إذا لم ألقها ..

فأنا لا يغرينى المستوى الاجتماعى .. ولا ذلك الجمال الزائف المصطنع وزواج المصالح المشتركة .

إن تلك الفتاة أحدثت أثرًا فى نفسى .. وهذا ما جعلنى أعاود التفكير فى الزواج والارتباط العاطفى، بعد أن ظننت أن تلك الأشياء لن يكون لها وجود فى حياتى .

ـ ألا يحتمل أن يغريها بالزواج منك ثراؤك الكبير ؟ وأن تكون لها ولأسرتها أطماع مالية بشأنك ؟

ـ بالطبع ستكون هناك أطماع مادية من جانب أمها وزوجها .. لكن ما يهمنى هو الفتاة .. ولا بأس من إرضاء تلك الأطماع ما دمت سأقتنع بالفتاة .. وصمت برهة قبل أن يستطرد قائلاً :

ـ لكن ماذا عنك ؟ أعنى هل أنت مستعد للإقدام على خطوة كهذه مثلى ؟ أم أنك ستكتفى بالإعجاب .. والنظر إلى الأمر على أنه تجربة جديدة مع فتاة مختلفة لم تلتق بمثلها من قبل ؟

قال له (طارق) وقد بدا مترددًا :

ـ هه ؟ بالطبع .. ما دمت سأجد فيها ما أريده فما المانع ؟

ـ لا تنس أنها فتاة برية .. وهى بالطبع أفقر حالاً من فتاتى .. ويبدو أنها لم تلق حظًا وافرًا من التعليم والرعاية .. إنها زهرة برية تختلف بالفعل عن كل زهرات المدينة اللاتى قطفتهن من قبل .

ابتسم (طارق) قائلاً :

ـ وهذا ما يعجبنى فيها .

ـ إننى لا أسألك عن الإعجاب .. بل أسأل عما لو كان الأمر قد تطور إلى ما هو أكثر من الإعجاب .

ـ إذا كنت أنت رجل الأعمال الكبير وصاحب الملايين مستعدًا للزواج من فتاة بسيطة ، ومنحها اسمك فى حالة ما إذا جمع بينكما الحب .. فما الذى

يمنع شخصًا مثلى يعمل لديك ، ورصيده فى البنك لا يتجاوز بضعة آلاف قليلة ، من الزواج أيضًا من الفتاة التى أحبها ؟

ـ المانع هو أن كلاً منا يفكر بطريقة مختلفة .. أنا رجل عملى دائمًا وعندما أتخذ قرارًا لا أتراجع عنه ، وأتمسك به مهما كانت الموانع والعقبات ، أما أنت فقد عاهدتك هوائيًا .. ولا تتمسك كثيرًا بقراراتك التى يسهل عليك التراجع عنها .

ثم كما قلت لك إن الفتاة التى أعجبت بها تختلف عن ابنة الشيخ (همام) .. فهى على الأقل عاشت فى المدينة وتلقت قدرًا وافرًا من التعليم .. ومن الواضح أن أمها دربتها على سلوكيات يمكن أن تتلاءم مع العلاقات الاجتماعية المفترضة بالنسبة لرجل أعمال مثلى .. وحتى لو لم تكن لها دراية بذلك .. فلن تكون هناك مشكلة كبيرة بالنسبة لها لتعلم مثل هذ السلوكيات .

أما فتاتك فقد تربت هنا .. فى العريش .. فى مزرعة نائية .. فتاة تطبعت بالطباع البدوية .. وليست لديها دراية كافية بحياة المدينة .. وسلوكيات

المجتمع هناك .. فهل يمكنك ترك فتيات النوادى اللاتى عرفتهن والارتباط بفتاة كهذه ؟

ابتسم (طارق) قائلاً :

ـ يبدو أنه ليس لديك دراية كافية بـ (ليلى) .. إنها ليست بدوية جاهلة كما تتصورها .. لقد تلقت تعليمًا حتى المرحلة الثانوية .. كما أنها تتقن الحديث بأفضل من أى فتاة أخرى عرفتها .. حديث به قدر كبير من الحكمة والمعرفة التى اكتسبتها من حياتها هنا .

أيضًا فإنها تجيد أشياء كثيرة لا يجيدها الكثير من الرجال .. قيادة السيارات .. وإصلاحها .. الزراعة .. الرعى .. السباحة .. ولديها استعداد غير عادى للتعلم والقيام بأى عمل يسند إليها .. إنها فتاة غير عادية من كل النواحى .

ـ لقد لاحظت ذلك من طريقة حديثها .. كما لاحظت جرأتها الشديدة فى قيادة تلك السيارة المتهالكة .. وأعرف أنها فتاة غير عادية .

لكنى ما زلت أتساءل عما إذا كان هذا يكفى لكى لا تنخدع فى شخص مثلك إذا ما قررت أن تضمها

لمجموعة الفتيات اللاتى عرفتهن من قبل .. أم أنها ستحدث تغييرًا فى حياتك بالفعل ؟

نظر إليه (طارق) وقد بدا عليه شىء من الضيق قائلاً :

ـ ما هذا الذى تقوله يا (عادل) ؟ إننى لست شريرًا إلى هذا الحد .. ثم إننى لم أخدع أحدًا كما تتصور .. كل من عرفتهن كن يبغين التسلية كما أبغيها .

ـ لكن (ليلى) ليست من هذا النوع .. أنا واثق من ذلك .

ـ وما الذى يجعلك واثقًا هكذا برغم أنك لم تعرفها معرفة جيدة ؟

ـ إحساسى يخبرنى بذلك .

ـ لكن .. ما الذى يجعلك مهتمًا بها إلى هذا الحد ؟

ـ لا أدرى .. أظن أننى أشعر بشىء من الشفقة والعطف نحوها .. خاصة بعد أن رأيت ذلك الرجل القاسى عمها وهو يستعد لجلدها بسوطه بينما هى مستسلمة له دون أن تبدى حتى محاولة لطلب الرحمة ..

فتاة يتيمة .. ترعى أختها الصغيرة .. حكم عليها القدر أن تكون أسيرة لرجل لا تعرف الرحمة قلبه يعاملها فى منزله كما لو كانت جارية ..

كل ذلك أثار عطفى واهتمامى نحوها .

أطرق (طارق) برأسه قائلاً :

ـ نعم .. أعترف بأنها تستحق العطف والشفقة .

ـ وأنا مهتم بك أيضًا .. لقد شكت لى خالتى من تصرفاتك من تلك الحياة اللاهية التى تحياها على نحو يزيد من قلقها عليك .. كما أنك أقرب صديق لى .

لذا يهمنى أن أراك تتخلى عن تلك الحياة التى تحياها .. وأن ترتبط بإنسانة تغير من طبيعتك الهوائية المتقلبة .

* * *



١١ - دهاء امرأة ..

ابتسمت زوجة الشيخ (همام) ، وهى تنظر إلى (عادل) الذى كان يجلس بجوار ابنتها على مائدة الطعام قائلة :

- أرجو أن يكون طعامنا قد أعجبك يا (عادل) بك .

ابتسم وهو يمسح آثار الطعام الذى علق بشفتيه بمنشفة المائدة قائلا :

- فى الحقيقة لم أذق أشهى منه .

همست له (نجوى) بصوت ناعم قائلة :

- إنها مجاملة لطيفة منك .. يا أستاذ (عادل) .. فرجل ثرى مثلك لا بد أنه قد دعى إلى موائد فاخرة ، وتناول أشهى وأرقى الأطعمة .

التفت إليها (عادل) وهو يتأمل وجهها بعينين تفضحان إعجابه الشديد بها :

- صدقينى إنها ليست مجاملة .. لكن هذا الطعام له مذاق مختلف بالنسبة لى .

قالت له زوجة (همام) ضاحكة :

- يسعدنى أن يكون طعامنا قد أعجبك يا (عادل) بك .

- إننى أشكر دعوتكم لى .

قالت له الزوجة :

- بل نحن الذين يتعين علينا أن نشكرك لتشريفك لنا .

ثم لكزت زوجها بمرفقها فى أضلعه وهى تردف قائلة :

- أليس كذلك يا (همام) ؟

تنبه الرجل لما ترمى إليه زوجته فسعل قائلاً :

- طبعًا .. طبعًا .. لقد شرفنا (عادل) بك بهذه الزيارة .

تحدث إليه (عادل) قائلاً :

- أرجو ألا يكون لقاؤنا الأول قد أحدث أثرًا سيئًا فى نفسك يا شيخ (همام) ..

قال له (همام) وهو يلوك قطعة كبيرة من اللحم فى فمه :

- كلا .. لقد كان مجرد سوء تفاهم وانتهى على خير .

- يسعدنى ذلك .

وتلفت حوله قائلا :

- ولكن .. أين ابنة أخيك ؟ لماذا لا أراها معنا على المائدة ؟

قالت له زوجة (همام) :

- هه .. فى الحقيقة .. إنها تشكو من بعض التعب فى معدتها .. لذا تناولت حساء ساخنًا .. وأوت إلى حجرتها .

قال (عادل) سريعًا :

- إذن يتعين على أن أطمئن عليها بنفسى .

قالت له المرأة :

- أظن أنها قد نامت الآن .. وهذا أفضل بالنسبة لها .

قال (عادل) وقد بدا غير مقتنع تمامًا بما سمعه :

- أرجو أن تشفى سريعًا من مرضها .

نظرت إليه (نجوى) وهى ترسم على شفتيها ابتسامة إعجاب قائلة :

- إنك إنسان عطوف للغاية يا أستاذ (عادل) .

تاهت أفكاره بعيدًا عن (ليلى) وقد احتوته تلك

الابتسامة ، التى أضفت جمالاً إضافيًا على الجمال الطبيعى الذى منحه الله لهذا الوجه الفاتن . وقال لنفسه وهو يختلس النظر إليها :

- لم أكن أظن أن هناك فتاة يمكن أن تضفى سحرًا حقيقيًا على ابتسامتها على هذا النحو .

ابتسمت أمها وهى ترقب ما يدور أمامها .. وقد أحست بغريزتها أن تأثير ابنتها على الشاب لم يعد مجال شك .. وأن نظرات الإعجاب تبدو صارخة فى عينيه .

قالت له (نجوى) وهى تبدى اهتمامًا ملحوظًا به :

- هل ستجعلنى أشك فيما قلته عن إعجابك بالطعام الذى أعددته أنا وأمى خصيصًا ؟

نظر إليها باستغراب قائلاً :

- لماذا تقولين هذا ؟

- إننى أراك لا تأكل .. بل لقد توقفت عن الأكل تقريبًا .

ابتسم قائلاً :

- فى الحقيقة لقد أكلت أكثر مما يجب .. وقد شبعت تمامًا .

تدخلت الأم قائلة :

- ما هذا الذى تقوله ؟ إن الأكل ما زال أمامك بأكمله .

- لقد ملأت طبقى عدة مرات .. ولولا أن هذا الطعام قد أثار شهيتى ما تناولت كل هذا .

قدمت له (نجوى) قطعة من اللحم قائلة بدلال وهى تقربها بالشوكة من فمه :

- ألا تتناول هذه من أجلى ؟

ارتبك للحظة .. ثم وجد نفسه يتناولها منها دون وعى منه .. وقد تقاطرت حبات عرق على جبينه :

وهمس لها بعد أن أزدرد قطعة اللحم الصغيرة قائلاً :

- أشكرك .

همست له بدورها فى صوت عذب قائلة :

- أنا التى يتعين على أن أشكرك لأنك لم تخيب رجائى .

قال لها سريعًا :

- لم أكن لأستطيع أن أفعل ذلك .

ابتسمت أمها قائلة له :

- بالهناءة والشفاء .

غادر (عادل) المائدة وهو يستعد لغسل يديه بعد أن فرغ من طعامه .. فقالت الأم لابنتها :

- أرشدى (عادل) بك إلى الحمام ، وقدمى له منشفة نظيفة لتجفيف يده .

أشارت له الفتاة لكى يتبعها وهى تخطو أمامه برشاقة ودلال .

بينما التفتت المرأة إلى زوجها على إثر ابتعاده قائلة :

- ما هذا يا رجل ؟ ألا تحاول أن تقول كلمة مجاملة واحدة لضيفك ؟

قال لها دون أن يتوقف عن الأكل :

- ماذا تريدين أن أقول له ؟

قالت له وهى تنظر إليه بازدراء :

- أى شىء يعبر له عن ترحيبك به .. ثم ما هذه الطريقة الهمجية التى تأكل بها ؟ كما لو كنت لم تر طعامًا طوال حياتك .

قال لها بلا مبالاة وهو مستغرق فى طعامه :

- لقد قلتما أنت وابنتك ما فيه الكفاية .. وأنا

لا أعرف الحديث مثلكما بهذا الأسلوب المنمق .. كما أننى حرٌ فى الطريقة التى أتناول بها طعامى ، وقد أخبرتك بذلك من قبل .. فلا داعى لإفساد شهيتى كل مرة بهذا الحديث .

قالت له زوجته وهى تنظر باشمئزاز ليديه الغارقتين فى دهن اللحم :

ـ كان يتعين عليك على الأقل أن تراعى وجود ضيف هنا لدينا .. وأن تحاول إلزام نفسك ببعض قواعد اللياقة فى وجوده .

التفت إليها فى غضب قائلاً :

ـ اسمعى يا (فادية) .. لقد طاوعتك فى كل ما طلبته منى حتى الآن ..

وافقت على استضافة هذا الرجل فى منزلى ، ومشاركته لى الطعام برغم أننى مازلت لا أستطيع أن أستسيغه .. بل أحاول إجبار نفسى على ذلك .

لكننى لن أغير من تصرفاتى وأقيد من حديثى فى دارى لأجله أيضًا .

قالت له زوجته بحدة :

ـ ليس لأجله ولا لأجلى أيها الأحمق .. بل لأجلنا

جميعًا .. إن مصلحتك مع هذا الرجل ومصلحتى أيضًا .. هل يتعين على أن أكرر عليك هذا دائمًا ؟

مزق (همام) رغيفًا كبيرًا من الخبز قائلاً :

ـ وما علاقة ذلك بأن أتناول طعامى بالطريقة التى تناسبنى ؟

نظرت إليه زوجته قائلة وهى تكاد أن تنفجر غيظًا:

ـ ماذا أقول لك ؟ ستظل تتصرف دائمًا كشخص بدائى .. ولا أدرى كيف أجعلك تتخلص من عاداتك الهمجية هذه فى كل أفعالك وتصرفاتك ؟

ثم أبعدت الطعام من أمامه وهى تستطرد قائلة :

ـ هيا .. كفاك طعامًا وحاول أن تلحق بضيفك وتظهر له شيئًا من الترحيب :

فى هذا الوقت كانت (نجوى) تقول لضيفها وهى تقدم له المنشفة ليجفف يده :

ـ أرجو ألا تقول إن المكان هنا قد أعجبك كما أعجبك الطعام .

قال (عادل) وهو يتناول منها المنشفة :

ـ ولم لا ؟

مطت (نجوى) شفتيها قائلة :

ـ أنا شخصيًا لم أسترح لوجودى هنا مطلقًا .
ـ أما أنا فأستريح لأى مكان يمكن أن توجدى فيه.
ابتسمت له بدلال قائلة :
ـ حقًا ؟
ـ إننى سعيد جدًا لأننى التقيتك يا (نجوى) .
قالت له وهى تزيح خصلات شعرها إلى الوراء :
ـ أشكرك على هذه المجاملة اللطيفة .
ـ لماذا تظنين أن ما أقوله لك دائمًا هو من قبيل المجاملات ؟
ـ على أية حال .. أنا أيضًا سعدت بلقائى بك .. وأسعدنى وجودك بيننا اليوم .
همس لها قائلاً :
ـ (نجوى) أريد أن أتحدث إليك قليلاً :
هزت كتفيها وهى تتظاهر بعدم الفهم قائلة :
لكننا نتحدث معًا بالفعل .
ـ كلا .. أريد أن أتحدث إليك بمفردك .
ـ لماذا ؟
ـ لأننى أريد أن أتعرفك أكثر .
وفى تلك اللحظة سمع (عادل) صوت نباح كلب

على مقربة منه .. وما لبث أن رأى (عنتر) وهو يدفع برأسه من وراء ضلفة الباب المواربة ، محاولاً إيجاد مساحة لجسمه كى ينفذ منها .
فابتسم وهو يناديه قائلا :
ـ (عنتر) !
لكنه ما لبث أن سمع صوت (ليلى) وهى تناديه بدورها قائلة :
ـ (عنتر) .. تعال هنا .
واندفع الكلب نحو (عادل) متذكرًا حنوه السابق عليه ، ومساعدته له فى إرواء ظمئه ..
فأخذ يمسح جسده بساقى (عادل) ويرفع قدميه الأماميتين وهو ينبح كأنه يناديه .
ـ بينما ربت (عادل) على رقبته .. وأخذ يداعبه بلطف قائلاً :
ـ أين كنت يا صديقى العزيز ؟
وما لبث أن سمع صوت (ليلى) وهى تناديه مرة أخرى ، وقد انفرج الباب بعد أن تحركت ضلفته إلى الوراء .. ليراها جالسة على الأرض فوق وسادة صغيرة من صوف الأغنام .. وقد وضع أمامها مائدة خشبية صغيرة عليها بعض الطعام ، وكانت فيما

يبدو تتناول غداءها الذى كان يخلو من الكثير من تلك الأطعمة الشهية التى وضعت أمامه .

أحس بعطف شديد عليها وهو يراها على هذا الحال .

كانت تحاول استدعاء كلبها .. لكن حينما لمحت (عادل) تراجعت إلى الوراء كما لو أنها تريد أن تتوارى منه .

لكنه لحق بها فى المطبخ والكلب فى إثره تاركًا (نجوى) تكاد أن تحترق غيظًا ، وقد أخذ جسدها يهتز بعصبية .. لهذا الظهور المفاجئ للفتاة الذى أفسد عليها كل شىء وجذب اهتمام (عادل) إليها .

تأمل (عادل) ثياب الفتاة البالية قائلاً لها :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

كانت تشعر بشىء من الخجل .. لكنها ما لبثت أن تغلبت عليه وعاودها ذلك الإحساس بالكبرياء والاعتزاز بالنفس ، وهى تتحدث إليه قائلة :

ـ كما ترى .. إننى أتناول طعامى .

سألها قائلاً :

ـ ولماذا لم تأت لتأكلى معنا ؟

أجابته وهى مستمرة فى محاولتها للاحتفاظ بكبريائها :

ـ إننى أشعر بارتياح أكثر حينما أتناول الطعام بمفردى .

أحس بأن إجابتها غير حقيقية .. فقال لها :

ـ لقد أخبرونى أنك تشعرين ببعض التعب فى معدتك .

قالت له وقد بدا أنها فوجئت بهذا التبرير لإبعادها عن مائدتهم :

ـ هه ؟ آه .. لقد كنت أشعر ببعض التعب بالفعل.. لكنى أصبحت بحالة طيبة الآن .

سألها قائلاً :

ـ كيف حال أختك الصغيرة الآن ؟

تطلعت إليه وقد تأثرت لاهتمامه بأختها وتذكره لها .. قائلة :

ـ إنها بخير .

حاول أن يسألها شيئًا وهو يقترب منها قائلاً :

ـ (ليلى) .. هل ..

لكن الشيخ (همام) ظهر فى هذه اللحظة ونظر إلى الفتاة .. ثم إليه قائلاً :

- هل هناك شيء يا (عادل) بك ؟

التفت إليه (عادل) قائلاً :

- هه .. لا شيء .. لقد كنت أسأل (ليلى) عن صحة أختها .

قال لها (همام) بخشونة دون أن يأبه لكشف كذبهم بشأنها :

- هيا .. أعدى الشاى للضيف وأحضريه إلى القاعة.

كان الكلب مازال يحوم حول ساقى (عادل) معبرًا عن سروره برؤيته .

فاستطرد (همام) قائلاً :

- وأبعدى هذا الكلب اللعين .

استرعى اهتمام (عادل) اختفاء (نجوى) المفاجئ .. فتحدث إلى أمها قائلاً :

- أين ذهبت (نجوى) ؟

ابتسمت الأم قائلة :

- إنها فى الفناء الخلفى للمنزل تعنى بالزهور التى قامت بغرسها بنفسها فى الحديقة التى تطل عليها غرفتها .

قال لها متحرجًا :

- هل يمكننى أن أتحدث إليها ؟

قالت له الأم سريعًا :

- بالطبع .. اذهب إليها وتحدث معها كيفما شئت ، ريثما تنتهى (ليلى) من إعداد الشاى .. وسوف أحضره لكما بنفسى .

غادر (عادل) المكان ليلحق بـ (نجوى) وقد هم (همام) بالنهوض فى إثره .. فسألته زوجته قائلة :

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- سألحق به .

- لا داعى لذلك الآن .. ألا ترى أنه مهتم بالحديث إلى ابنتى حديثًا شخصيًا ؟

قال لها (همام) بضيق :

- إننى لم أعد أفهم ما الذى تريدينه منى؟ إذا أردت أن أحتفى به وأتودد إليه تقولين لى .. ابتعد ولا داعى لذلك .. وإذا أهملته تتهميننى بعدم اللياقة وأننى لا أظهر نحوه الترحيب الكافى .

قالت له زوجته بصبر نافد :

- إننى لا أعرف كيف أجعلك تفهم ؟ لماذا تظن

أننى قد دعوته إلى هذه الوليمة ؟ وأظهرت له كل هذا الترحيب والاهتمام ؟

إننى أحاول أن أجذب انتباهه لـ (نجوى) .. وقد نجحت فى ذلك حتى الآن .

ولو نجحت (نجوى) فى الاستئثار بمشاعره .. ودفعه للزواج منها فسوف ينهى هذا كل مشاكلنا .

حدق فيها وقد فغر فاه كعادته عندما يستعصى عليه الفهم قائلاً لها :

ـ تستأثر بمشاعره .. وتتزوجه ؟ هل تظنين أن شخصًا مثله يمكن أن يتزوج من ابنتك ؟

قالت له باستعلاء :

ـ ولم لا ؟ إن ابنتى ذات جمال باهر كما ترى .. وقد سعى الكثيرون لخطب ودها وتهافتوا على الزواج منها .. لكنها رفضت كل من تقدم لها لأنها لم تر منهم شخصًا يستحقها .

ـ نعم .. لا أنكر أن ابنتك جميلة .. ولكن شخصًا مثله لا بد أنه التقى بمن تفقنها جمالاً .

قالت له باستنكار :

ـ لا توجد فى مصر من تفوق ابنتى جمالاً .

ـ حتى لو افترضنا ذلك .. فلا بد أن رجلاً كهذا لو فكر فى الزواج .. فإنه سيسعى للارتباط بمن تناسب مستواه الاجتماعى والمادى .

قالت له زوجته بحدة :

ـ لقد ربيت ابنتى أفضل تربية .. وهى تشرف أى رجل تنتسب إليه .. كما أن رجلاً مثله لن يهتم كثيرًا بالمستوى المادى للفتاة التى سيتزوجها إذا ما وقع فى الحب .

سألها (همام) قائلاً :

ـ وهل تظنين أن ابنتك ستنجح فى دفعه إلى حبها ؟

ابتسمت قائلة فى ثقة :

ـ بل أظن أنها نجحت فى ذلك بالفعل .

ـ إن ما يعنينى فى الأمر هو أن أبقى محتفظًا بمزرعتى ومنزلى .. أو أن ألقى تعويضًا عادلاً عنهما .

قالت زوجته وهى ما زالت محتفظة بابتسامتها الماكرة :

ـ اطمئن .. سيحدث ذلك !

* * *

(انتهى الجزء الأول بحمد الله)



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل



أ. شريف شوقى

زهرة برية

كانت (ليلى) زهرة برية نبتت بين الأشواك ؛ فقد عاشت ظروفًا قاسية منذ نعومة أظفارها وحبًا أدمى مشاعرها .. لكنها لم تفقد صلابتها ونقاء روحها .. فبقيت تتحدى كل ما أحاط بها من أشـــواك .

82

قرش جنيه

الثمن في ...

وما يعادله بالدولار الأمريكي في ... والعالم

